المكتبة الثقافية

٢٧

القوميّة العربيّة

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

١٥ ديسمبر ١٩٦٠

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

القانون والحياة

للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى

أول يناير ١٩٦٠

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢ مـ

المكتبة الثقافية
٢٧

القوميّة العربيّة

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
الإدارة العامة للثقافة

١٥ ديسمبر ١٩٦٠

الناشر

دار القلم

فكرة القومية

تذكار

حياة وموت ، ونشأة ونمو ، وطفولة وشباب وكهولة ، مثلها فى ذلك مثل أى كائن حى .

والقومية العربية فكرة من جملة الأفكار التى انبعثت فيها الحياة هذه الأيام بوجه خاص ، وأصبح يجرى عليها ما يجرى على كل كائن حى ، من النشوء والازدهار ، والنمو والتقدم ، والكفاح والصراع ، والتفاعل مع البيئة ، وما يصحب ذلك من تلاؤم مع عناصر هذه البيئة ، وما يتم نتيجة هذا التفاعل من غلبة وانتصار أو هزيمة وتراجع .

وقد رسخ فى الأوهام من قديم الزمان ، ومنذ قامت الفلسفة اليونانية وامتدت إلى العصر الوسيط ونفذت إلى العصر الحاضر ، ان الفكرة أسمى من العمل ، وأن عالم الأفكار يمتاز بالثبات والدوام ، وأنه هو عالم الحقيقة بالذات . أى أن للأفكار وجوداً مستقلا فى عالم أسمى ، هو عالم العقل والمعقولات ، وعلى الإنسان أن يسعى إلى معرفة هذه الأفكار الموجودة وجوداً أزلياً باتباع مناهج القياس والبرهان . حتى إذا فتح العلم فتوحاته

الجبارة فى علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والحياة ، واتبع فى ذلك منهج البحث القائم على المشاهدة والتجربة ، والنظر إلى الوقائع كما هى عليه فى الوجود ، وكما هى عليه فى هذا العالم المتغير ، تنبه الإنسان إلى أن الحقائق ينبغى أن تلتمس من عالم الواقع لا من عالم أسمى من الواقع ، وإلى أن الأفكار العلمية تعتمد على الحس والتجربة ، وتستمد وجودها من تيار البيئة الحية ، وأنها لهذا السبب لا تمتاز بالثبات كما كان يعتقد المفكرون من قديم الزمان .

ثم أخذت المناهج العلمية المطبقة على الفلك والطبيعة والكيمياء والحياة تغزو ذلك الجانب الذى كان يظن أنه مغاير فى طبيعته للعلوم الطبيعية ، ونعنى به عالم الإنسان وما يمتاز به من سلوك اجتماعى واقتصادى وسياسى وأخلاقى ودينى .

وبدأت علوم النفس والاجتماع والاقتصاد والسياسة والأخلاق ، بل والدين ، تخضع للمناهج العلمية المضبوطة ، وأصبحت هذه المجموعة من العلوم التى تسمى علوماً إنسانية خاضعة للتفكير العلمى الحديث ، فنزلت من عالمها العلوى إلى هذا العالم الذى نعيش فيه .

والقومية العربية فكرة من الأفكار الإنسانية ، أى التى

تعيش فى رءوس قوم من الناس هم الذين نسميهم العرب ، أو اصطلحنا على تسميتهم هذه التسمية ، أو قل : إنهم هم الذين ارتضوا لأنفسهم أن يسموا أنفسهم كذلك . وليست هذه الفكرة فكرة مجردة متعالية تعيش فى عالم آخر أسمى من هذا العالم الواقع . وإذا شئنا أن نتبين ملامح هذه الفكرة ، فعلينا أن نتأملها لا فى رءوس أصحابها ، لأن هذا المنهج يبعدنا عن الطريق العلمى ، بل علينا أن ننظر إليها فى سلوك الناس الذين يصطنعونها ، والذين تدور فى رءوسهم هذه الفكرة ، وتجرى على ألسنتهم ، وتميز اعمالهم وأنماط سلوكهم وتصرفاتهم .

القومية العربية إذن فكرة حية ؛ لأنها تعيش فى رءوس قوم أحياء ، يريدون الحياة ، ويدافعون عن وجودهم ، ويذودون عن كيانهم معتمدين على هذا الأساس الروحى الذى يربط بينهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويميز هذه الجماعة التى تبلغ ملايين كثيرة يشغلون من الأرض مساحة واسعة ، تمتد من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى .

وليست القومية العربية هى الفكرة الوحيدة التى تشغل أذهان هذه الملايين ، بل ثمة أفكار أخرى كثيرة برزت إلى عالم الوجود ، ونفخت فيها الحياة ، ونزلت من عالم المجردات

إلى مستوى الحياة الواقعة ، وأصبحت تجرى فى دمائهم ، وتتشكل بحسب إرادتهم وطريقة منهجهم وإدراكهم للأمور. خذ مثلا هذه الأفكار الجديدة التى ظهرت فى منطقة الشرق الأوسط منذ بداية القرن العشرين حتى الآن ، ففكرة الاستقلال ، وفكرة التقدم ، وفكرة الثورة ، وفكرة التصنيع ، وغير ذلك مما يجرى على قدم وساق ، وينهض بتغيير أحوال المنطقة ، ويؤذن بتحول شديد فى جميع نواحى الحياة .

الاستقلال اليوم ، غير الاستقلال الذى كانت فكرته تدور فى أذهان العرب منذ ربع قرن مضى فقط . وكذلك الحال فى النهضة ، والتقدم ، والرقى ، والتصنيع ، والثورة . وعلة ذلك ، أن الناس الذين يحملون هذه الأفكار ويحاولون تطبيقها قد تغيروا ... فهم جيل جديد يخالف الجيل الماضى ، وهم الأداة لتنفيذ هذه المعانى الجديدة التى تتحدد مدلولاتها طبقا لفهمهم إياها ، والطريقة التى يحققونها بها .

فهذا هو ما نقصده من قولنا : إن الأفكار تكتسب حياتها من حياة الذين يؤمنون بها ويعتنقونها . وقد عبر جمال عبدالناصر عن هذا المعنى فى كتابه « فلسفة الثورة » حين قال : إن الأفكار لا تعيش فى فراغ ، وإن الثورة التى قام بها هو وأصحابه فى يولية

سنة ١٩٥٢ ، إنما كانت تعيش فى جنوبهم مذ كانوا شبابا وطلابا ، وإنها تطورت من هتافات ومظاهرات تملأ الفضاء صخبا ، ثم تتبدد فى الهواء ، إلى أعمال إيجابية تهدف إلى تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية لخير الشعب .

والقومية العربية ، ولو أن لها جذوراً تاريخية عميقة تذهب إلى مئات السنين ، إلا أنها ثمرة من ثمرات الثورة الراهنة ، ونتيجة من نتائجها . فالقومية العربية فى الوقت الحاضر فكرة حية ، بل هى فكرة ثورية ، تتصف بما تمتاز به الأفكار الثورية من صفات جوهرية ، وهى القوة الدافعة (الديناميكية) ، والتطور السريع نحو تحقيق الأهداف التى تتطلع إليها الأمة العربية من بناء مجدها والاعتزاز بحريتها .

هذا المعنى من أن القومية العربية فكرة تجرى فى دماء الملايين من أبناء العرب الناطقين بالضاد ، هو الذى عبّر عنه جمال عبد الناصر فى خطبته لمبعوثى الدول العربية فى المركز الدولى للتربية الأساسية « بسرس الليان » بتاريخ ١٥ يونية ١٩٥٩ حيث قال : إن شباب العرب « جيوش لا نراها » .

وإليك مقتطفات من هذه الكلمة الجامعة .

« حينما نادينا بدعوة القومية العربية ، عن إيمان بحق الأمة

العربية فى الحرية ، وفى الحياة ، لم نكن نعتمد على القوى المادية او قوة السلاح ، ولكننا كنا نؤمن بأن هناك جيوشا متعددة فى كل مكان لا نراها ، ولا نعرفها ، وقد نلتقى بها وقد لا نلتقى بها ....

هذه الجيوش هى جيوش الشباب الذى آمن بهذه الفكرة فى الماضى ، والذى يعمل على تحقيق هذه الفكرة فى الحاضر ، والذى يدافع عن هذه الفكرة فى المستقبل ....

وأنتم فى هذه اللحظة ـ ونحن نلتقى بكم لأول مرة ـ إنما تمثلون هذه الجيوش التى لا ينظمها إنسان ، ولا يرتبها بشر ، ولكنها نظمت عن عقيدة عالية ساميه كبيرة ، لا لغرض خاص ، أو لمنفعة ذاتية ، وإنما من أجل رفعة شأن الأمة العربية جمعاء ، من أدناها إلى أقصاها ، ومن أجل رفعة شأن الشعب العربى ، الذى ذاق الكثير على مر السنين وعلى مر الأيام ....

لهذا سنحقق هذه الرسالة الكبرى التى لا تعبر عن رسالة فرد أو أفراد ؛ ولكنها ، هى رسالة الأمة العربية ، رسالة تنبعث من قلب الأمة العربية ، ورسالة تجرى فى دماء أبناء الأمة العربية » .

هناك إذن رابطة خفية ، تجعل من هذه الملايين أمة واحدة ، يشعر كل فرد منهم بأنه عربى ، ولو أنه لا يستطيع تحديد معنى

القومية العربية تحديداً دقيقاً مضبوطاً . لو سئل أحدنا مَنْ هو ؟ لقال : أنا عربى ، سواء أكان هذا الفرد فى أقصى الشرق : فى العراق ، أو الكويت ، أو فى الوسط : فى الشام والأردن ولبنان والسعودية واليمن . أو فى غرب ذلك : فى مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب .

إنه شعور عام بالقومية العربية ، وهو شعور جارف فياض . سمه - إن شئت - « روح » القومية العربية ، أو « فكرة » القومية العربية ، أو « تيار » أو « وعى » ، فالقومية العربية حقيقة واقعة لا ريب فيها . وجميع الأفراد فى هذه الدول التى ذكرناها جنود لا نراها ، فى هذه الأمة العظيمة ، أو هذا الجيش الكبير ، تعيش فكرة القومية العربية فى قلوبهم ، وتدفعهم إلى التآلف فيما بينهم .

وقد مرت فكرة القومية العربية عَبْر التاريخ ، بفترات كثيرة من الازدهار والانتصار ، وفترات أخرى من الهزيمة والاندحار .

لم يكن العرب شيئاً مذكوراً حتى جاء الإسلام بمثله العليا ، فألف بين قلوبهم ، وجمعهم تحت رايته ، وهذب ما فى أخلاقهم ، من انفصالية ، وقبلية ، وفردية ، وعدوانية ، وبث فيهم حب

السلام والتعاون والعمران ، فاجتمعت بذلك خصال العرب المتأصلة فى نفوسهم ، وهى الخصال التى سنعرض لهـا فيما بعد تفصيلا باعتبار أنها الأصل فى القومية العربية ، إلى المثل العليا التى جاءت مع الدين الجديد ، وقامت بذلك ثورة عظمى لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، إذ قوضت القومية العربية أركان أعظم دولتين تربعتا على عرش العالم المعروف قروناً طويلة من الزمان ، وهما : الفرس والروم .

ويخطىء مَنْ يظن أن العرب انتصروا على جيوش الفرس والروم بقوة السلاح ، فلم يبتدع العرب سلاحاً جديداً فتاكا ، يشبه القنبلة الذرية مثلا ، أو الطائرات النفاثة ، والصواريخ الموجهة فى العصر الحاضر ، بل على العكس كانت جيوش الفرس والروم أكثر عدداً ، وأوفر سلاحا ، وأعظم عدة ؛ ولم يخطر ببال قادتهم أن يستطيع الجنود العرب الوقوف فى وجوههم بضع ساعات .

انتصار العرب على الفرس و الروم أعمق من مجرد انتصار جيش على جيش فى معركة حربية .

إنه انتصار القومية العربية على قومية الفرس ، وعلى قومية الروم .

إنه دليل على انهيار الحضارة الفارسية ، وانحلال حضارة الروم ، وآية على تغلب القيم الجديدة ، التى جاءت مع القومية العربية، على القيم التى كانت موجودة فى حضارتى الفرس والروم.

فقد سئم الناس غطرسة حكام الفرس وعنجهيتهم ، وفساد الحياة فى بلاد الروم ، وانصراف رجال الدين إلى مجادلات بيزنطية ، ذهبت مثلا على عقم التفكير ، وفساد المنطق ، وعدم جدوى المناقشات . أما ملايين الشعب فى كلتا الدولتين فكانوا يساقون كالأغنام ، ويعيشون معيشة أحط من حياة السوائم ، لا ينعم فيها الإنسان بحريته أو كرامته .

وجاءت القوميــة العربية تقرر حرية الفرد فى الفكر والعقيدة ، بشرط أن يكون مؤمناً بالله الواحد القهار ، ومساواة جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات، فلافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وتقرر وحدة العرب وتضم أشتاتهم . وفى ذلك يقول شكرى القوتلى (بمناسبة إعلان الوحدة) : ــ « إننا بإعلاننا وحدة الجزأين العربيين الغاليين ، والقطرين المجاهدين المناضلين ، وطناً واحداً ، فى جميع مرافقه وشئونه ، بلا تفريق ولا تمييز ، وبلا تحديد وبلا تحفظ ، إننا لم نأت بجديد ، بل إننا نصحح أوضاعا ونعيدها إلى أصولها ، ونتجه بذلك كل

الاتجاه مع حقيقة الأمة العربية ... وحقيقتها كانت ، وما زالت ، وستبقى إلى الأبد : حرية ووحدة » .

الحرية والمساواة ، والخير ، والعدالة والسلام والتسامح ، هى القيم الجديدة ، التى غزت بها القومية العربية العالم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فانتصرت القومية العربية فى رسالتها الجديدة ، وحققت أعظم ثورة فى التاريخ . وقد شهد بذلك بعض كتاب الفرنجة المحدثين ، فقال جوستاف لوبون يوازن بين فتوحات العرب وبين الاستعمار الأوربى : ـ « لم ينبئنا التاريخ قط بفاتحين أرحم ولا أعدل من العرب فى فتوحاتهم » . ذلك أن العرب لم يكن هدفهم استعمار البلاد المغلوبة واستغلالها بل كان غرضهم نشر رسالة العدل والسلام ؛ ومن أجل ذلك رضيت الشعوب بفتح العرب ، ورحبوا بهم ، ولم تلبث لغتهم أن سادت وتغلبت وأصبحت هى اللغة الرسمية ، ثم دخل الناس فى دين الله أفواجاً عن رضا وطواعية ، وعن اقتناع بفضل الدين الجديد . اما الذين آثروا البقاء على دينهم من يهود أو نصارى فلم يتعرض لهم العرب فى بيعهم أو كنائسهم ، وظلوا يمارسون عباداتهم فى حرية ، ولم يعرف التاريخ أنهم وضعوا السيف فى رقاب المخالفين ، أو أرغموهم على الخروج من دينهم كما فعلت المسيحية

فى الأندلس ، حين قضت على اليهود والمسلمين على حد سواء .

واستمرت القومية العربية هى السائدة ، طوال الدولة الأموية ، وفى صدر الدولة العباسية ، حتى زمان الخليفة المعتصم بالله ، الذى استعان بالجند من الأتراك لحماية عرشه ، فثلوا فيما بعد عروش العرب ، ونكلوا بالخلفاء وثملوا عيونهم .

تعرضت القومية العربية إذن للمحنة والاختبار ، ودخلت مع قوميات أخرى فى معارك مريرة ، وأعنف معركة خاضتها القومية العربية صراعها مع الفرس ؛ فقد كان الفرس ذوى حضارة عريقة ومجد قديم ، ولم ينسوا قط هزيمتهم المنكرة على يد العرب ، حتى بعد أن تكلموا اللغة العربية ، وبعد أن اعتنقوا الإسلام . والفرس هم الذين بثوا الدعوة السرية فى خراسان ، ضد بنى أمية ، حتى قضى السفاح على ملكهم ، وأقاموا الخلافة العباسية ليتسنى لهم التسلل إلى السلطان وبلغ نفوذ الفرس فى خلافة الرشيد من القوة ما جعله يبادر بالفتك بالبرامكة قبل أن يثبوا على العرش . ومما يروى فى كتب المقالات ان من اسباب نكبة البرامكة ، ما بلغ الرشيد من أمر جعفر أنه يوقد النيران سراً فى بيته على عادة الفرس من قديم الزمان. وظل الفرس يتكلمون اللغة العربية رسمياً ، ويتداولون

الفارسية فيما بينهم ، حتى إن كثيرا من علمائهم ، مثل الشيخ الرئيس ابن سينا ألف باللغتين معاً ، ولو أن معظم تآليفه بالعربية .

هذه الحركة المعادية للعروبة تعرف فى التاريخ باسم « الشعوبية » ، ووقف منها الناس فى ذلك العصر موقف بلبلة ، بعضهم يؤيدها وبعضهم يعارضها ؛ ذلك أن معظم الناطقين بالضاد لم يكونوا من أصل عربى خالص ، لا من قلب الجزيرة العربية ولا من أطرافها فى الشمال ، بل كانوا من الدخلاء الذين انقلبوا إلى العروبة ؛ ومع ذلك فقد دافع عن العروبة كثير من الكتاب مع أنهم من أصل فارسى .

ثم جاء الترك الذين نفذوا إلى جسم العروبة عن طريق الخليفة « المعتصم » ، فكانوا المعول الثانى فى هدم القومية العربية ، بعجمتهم وعنجهيتهم ، ولم يكن لهم همٌّ إلا الحكم بالسيف والإرهاب ، واستغلال المحكومين لصالح الحكام ؛ ولذلك لم تزدهر العروبة إلا فى بلاط العرب ، مثل بلاط سيف الدولة فى الشام .

وانتهى الأمر بالعرب بعد حين من الدهر ، أن أصبحوا نهباً مقسما بين الفرس والترك ، كما كانوا مقسمين قبل الإسلام

بين الفرس والروم . ولما وقعت الشام ومصر وشمال إفريقيا ، تحت الحكم العثمانى ، كانت اللغة الرسمية هى التركية ، ونزلت اللغة العربية إلى المحل الثانى . هذا إلى ما أنزله الترك بالحضارة الزاهرة التى كانت تشع فى أرجاء العالم كله نوراً فى ذلك الزمان، ونقل الأتراك الخلافة إلى « استانبول » ، واتخذوا من اسم الخلافة والإسلام ستاراً يحكمون به العرب ، فاغتروا بذلك زمناً إلى أن كان القرن الماضى ، ونهضت هذه البلاد من جديد تذود عن عروبتها وعن استقلالها ، فارتفع شأن العروبة شيئاً فشيئاً ، وولدت فكرة القومية العربية من جديد ، وأخذ ساعدها يشتد على مر السنين .

ولم يكن من المعقول أن يلقى العرب عن كواهلهم حكم الأتراك ، ليرضخوا لاستعمار الإنجليز والفرنسيين ، الذين اقتسموا بعد الحرب العظمى البلاد العربية ، باسم الانتداب تارة ، أو الاحتلال تارة أخرى أو الاستقلال المزيف ، تحت ستار معاهدات تجعل الاحتلال مشروعا . واشتعلت نيران الثورة فى جميع أرجاء المنطقة من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى ، ولا تزال نيران الثورة مشتعلة ، ولا تزال المعركة ناشبة .

ولكن الطامة الكبرى التى أصابت القومية العربية فى الصميم هى تمكين الغرب إسرائيل من التوسع فى فلسطين ، بالغدر والخيانة والخديعة ، حتى انتهى أمرها إلى اقتطاع جزء من جسم الوطن العربى ، وطرد مليون من العرب لاجئين ليس لهم مأوى ولا دار ولا وطن .

هذا هو الخطر الداهم ، الذى يهدد القومية العربية بأسرها منذ سنة ١٩٤٨ .

وقد نبه هذا الخطر العرب ، إلى خطورة كيانهم نفسه ، فسارعوا إلى الالتفاف حول راية القومية العربية ، ليتخذوا من اتحادهم قوة تجابه قوة الاستعمار الغربى الذى يساند إسرائيل .

ودخلت فكرة القومية العربيه فى صراع مع فكرة الصهيونية الناشبة فى قلب العرب .

الصهيونية عدوان وعصبية وغدر ، والقومية العربية سلام ، وتسامح ، وشهامة ووفاء . فالصهيونية عدوان لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، إذ أخرجوا مليونا من العرب من ديارهم ، وألقوا بهم فى الصحراء يتساقطون كأوراق الخريف ، إلى جانب الفظائع التى ارتكبوها مما تقشعر له الأبدان ، ولا يقر به عرف دولى أو شريعة سماوية . والصهيونية عصبية دين فى قلب القرن

العشرين ، بعد ظهور ما يتشدق به الغربيون من مبادىء الحرية والإخاء والمساواة ، وبعد تقرير الحريات وعلى رأسها حرية العقيدة . والصهيونية عصبية جنس ، وقد ثبت أن رابطة الجنس خرافة ، وأن الساسة من أمثال « هتلر » اتخذوا من أسطورة الجنس ستاراً يخفون وراءه مطامعهم العدوانية .

فكرة القومية العربية فى صراع اليوم مع فكرة الصهيونية .

وستنتصر فكرة القومية العربية ؛ لأنها أصبحت فكرة حية متطورة يريد أصحابها لها الحياة بإيمانهم بها ، وتمسكهم بما فيها من مثل عليا ، هى مثل السلام والتسامح والعدل .

وقد صدق الشاعر أبو القاسم الشابى ، وهو من الجزائر حين قال :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة   فلا بد أن يستجيب القدر

اللغة

برز حديث القوميات فى القرن الماضى ، وخاض فى أمره الكتاب والمؤرخون ، وأرجعوا اتصال أسباب القومية إلى عدة أمور ؛ منها الأرض ، واللغة ، والدين ، والجنس ، والعادات والتقاليد ، والتاريخ المشترك . ويغالى بعض المؤرخين ، فيرجع أصول القومية إلى عنصر واحد من هذه العناصر . مثال ذلك أن عامل الجنس ظل بدعة زمنا طويلا حتى أثبتت المباحث العلمية بما لا سبيل إلى الشك فيه أنه لا يوجد شعب تجرى دماؤه خالصة نقية . وذهب بعضهم إلى أن اللغة ، عنصر قوى من عناصر القومية ، ومع ذلك فأنت تجد أمة مثل سويسرا ، تتكلم ثلاث لغات هى الألمانية والفرنسية والإيطالية ، وتجمعها راية واحدة .

ويبدو أن القومية لا ترجع إلى عامل واحد فقط ، بل إلى هذه العوامل كلها مجتمعة ، كما قال « جمال عبد الناصر » فى خطاب إعلان الوحدة بين مصر وسوريا فى مجلس الأمة المصرى والذى جاء فيه : « لقد مهدت عوامل كثيرة وكبيرة ، ونبيلة وعميقة ، لهذا الذى ربط بين مصر وسورية ، مهدت الطبيعة

ومهد التاريخ ، مهد الدم ، ومهدت اللغة ، ومهدت الأديان ومهدت العقائد ، ومهدت السلامة المشتركة ، ومهدت الحرية ... ولم يكن هذا الواقع موجوداً فى دمشق والقاهرة وحدهما ، كذلك لم يكن ذلك النداء القدسى فى هذا النطاق وحده لا يتجاوزه ، وإنما كان الواقع موجوداً فى كل أرجاء الوطن العربى ، وكان النداء هو هدير التيار المتلاطم بالموج ، ذلك التيار الذى شقت القومية العربية كلها مجراه ، ووحدت له خط سيره ... » .

لا ينبغى إذن أن تلتمس عاملا واحداً للقومية ، بل انظر إلى سائر العوامل مجتمعة .

غير أن القوميات تختلف فى ظروفها وبيئتها وتاريخها ونشأتها ، فهناك عوامل أغلب من غيرها فى قوميات ، وعوامل مقدمة على أخرى فى قوميات .

ونحن نرى أن أول عامل فى تكوين القومية العربية منذ أقدم عصورها حتى اليوم هو عامل اللغة .

فقد امتاز العرب بهذا اللسان المبين ، واختاره الله تعالى لينزل به قرآنه الكريم .

قال عز وجل : « وكذلك أنزلناه حكما عربيا » ، وقال :

« وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد » . ووصف سبحانه القرآن فقال : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » وخاطب نبيه قائلا : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا » . وحين اتهم النبى عليه السلام بأن هناك شخصا يتعلم منه القرآن ، نزلت الآية ترد هذا الاتهام : « لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » .

ومنذ اكتمال اللغة العربية قبل نزول القرآن فى القرن السادس أى منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، ثم نزول القرآن بهذه اللغة الكاملة المبينة ، المعبرة عن كافة المعانى ، ثم شيوعها على ألسن الملايين من الناطقين بالضاد حتى الآن ، وهم يتفاهمون بها ، فيما بينهم وبين أنفسهم ، ويدونون بها الكتب التى يؤلفها علماؤهم وأدباؤهم فى شتى فنون المعارف والعلوم .

منذ ذلك الحين اندثرت لغات كانت معاصرة للعربية ، كاللاتينية ، واليونانية القديمة ، والبهلوية ، وتطورت عنها لغات أخرى ، كهذه الفروع الأوربية الكثيرة التى خرجت من اللاتينية واليونانية ، ولا تزال اللغة العربية محتفظة بكيانها ،

تعيش فى القرن العشرين كما كانت تعيش فى القرن السادس ، على الرغم من سهام الناقدين ، وسموم الحاقدين .

وإن دل هذا على شىء ، فإنما يدل على حيوية هذه اللغة الكريمة ، وقوتها ، ونفاسة معدنها ، واعتزاز أصحابها بها ، وتمسكهم بأهدابها . كما يدل ذلك على صلاحية هذه اللغة لمسايرة الحياة والتطور مع الزمن .

والأصل فى اللغة أنها سبيل إلى التفاهم بين الناس ، وأنها طريق إلى الإبانة عما يدور فى داخل النفس من المعانى المختلفة . ومدار الحياة الاجتماعية على الاتصال بين الأفراد فى المعاملات ، وسبيل ذلك الاتصال هو اللغة ، فكلما كانت أبين وأدل على المعانى ، وأكثر توضيحاً للمطالب والمقاصد ، كان المجتمع أوثق صلة ، وأشد ارتباطاً ، وأعظم تفاهما ، وهذا كله مدعاة إلى الارتفاع بالمجتمع فى طريق التقدم والسمو بحضارته .

وقد أجمع الناس من قديم الزمان ، على امتياز اللغة العربية بهذه الخصائص التى يصفها قولنا « البيان » حتى سمى هذا اللسان فى محكم التنزيل باللسان العربى المبين .

فهذا صاعد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم قد وصف المصريين واليونانيين والصينيين والهنود والروم والفرس

والعرب ، وذكر أن كل امة من هذه الأمم تمتاز بخصائص لا توجد فى غيرها ، مثل فلسفة اليونان ، وحساب الهند ، وتصاوير الصينيين ، ثم وصف العرب بأنهم أهل الفصاحة والبلاغة ، ولهذا تحداهم الله تعالى بالقرآن مع رسوخ قدمهم فى صناعة البيان ، فلم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وجدير بالعرب أن يفخروا على غيرهم من الأمم بما حباهم الله من فصاحة اللسان ، وفضلهم على غيرهم بهذه اللغة المبينة . وهل سبيل نشر المبادئ ، وإذاعة الرسالات والتأثير فى الناس ، إلا بحسن المنطق وامتلاك ناصية البيان ؟ آية ذلك ؛ أن موسى عليه السلام حين أرسله الله إلى فرعون سأل ربه ودعاه قائلا : « قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى » .

وآية ذلك رسالة الإسلام نفسها فإن أداتها القرآن ، كلام الله ، وتنزيل رب العالمين . ولم تنتشر هذه الرسالة بالقهر والسيف بل بنور القرآن وحجة الكتاب وما فيه من بلاغة ساحرة تخاطب أولى الألباب فتأخذ بالألباب .

ونحن إذا قلبنا النظر فى صفحات التاريخ ، رأينا أن عزة العرب ، كانت موصولة بتمسكهم بفصاحة اللغة ، وحسن البيان. كان ذلك شأنهم فى صدر الإسلام وأيام الدولة الأموية ، حتى دخل الأعاجم فى الإسلام ؛ فدخلت العجمة على التراكيب والعبارات ، وأخذت العامية فى الشيوع . غير أن حكام العرب وأمراءهم كانوا يخافون اللحن ويخشون الابتعاد عن الفصحى ويعدون ذلك من أقبح الرذائل . ومن أقوال الحجاج : «شيبنى صعود المنابر ، والخوف من اللحن» . وكان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية لتقويم ألسنتهم ، وليتعلموا البصر بمواضع الكلام . وظلت الحال على هذا المنوال إلى أواخر حكم الأمويين . وتروى كتب التاريخ قصة تصور لنا قوة اللغة وأنها أمضي من السلاح أثراً ؛ ذلك أن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حين شاعت فتنة العباسيين وانتقضت أطراف البلاد بتأثير دعوتهم وفتنتهم ، واشتد بأس السفاح وظهر أمره ، دعا مروان عبد الحميد الكاتب وقال له : « هذا وقتك وقد احتجنا إليك ، فاكتب إلى السفاح كتابا يرده إلى الطاعة ، ويثنيه عن عزمه » . فكتب عبد الحميد كتابا مطولا أرسله إلى السفاح ، فلما تلقاه خشى أن يقرأه ، حتى لا يتأثر ببلاغة

عبد الحميد ، واستل سيفه ومزق الكتاب وأنشد قائلا :

« محا السيف أسطار البلاغة وانتحى
عليك ليوث الغاب من كل جانب »

وقد تمسك العرب فى عهد العباسيين بلغتهم ، وظهر فى القرون - الثالث والرابع والخامس - من الهجرة كتاب تركوا لنا ذخيرة من العلوم والآداب والفنون تشهد بسمو اللغة العربية ، وأنها اتسعت لجميع ألوان الحضارة . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن العربية تحوى كثيراً من المترادفات والألفاظ المعبرة عن خواطر النفس البشرية . ولما احتاج العرب إلى نقل العلوم الطبيعية والرياضية ، عربوا المصطلحات وأدمجوها فى قاموس اللغة ، مما يثبت بالبرهان القائم على أنها لغة حية ، وأنها لغة حضارة .

وقد عابوا على العربية صعوبتها ، وردوا صعوبتها إلى إعرابها ، وقالوا : إن الناطق بها والمتعلم إياها ، ينبغى أن يفهم أولا ، حتى يتكلمها كلاما صحيحاً ، وينبغى أن يعرف أن هذا الاسم فاعل فيرفعه ، وأن هذا مفعول فينصبه . وقد أثبتت المباحث الأخيرة فى علم النفس ، العلاقة الوثيقة بين اللغة والذكاء . ولذلك كانت الأسئلة عن معانى الألفاظ ودلالاتها ومواضعها

من العبارات من جملة اختبارات الذكاء . وإنما يفضل إنسان على آخر ، ويسمو شخص على شخص ، ببراعته فى استعمال هذه الأداة التى هى سبيل التفاهم والتفهيم ، والإدراك والتعبير ، والتى نسميها اللغة. وقد قيل: «إن من البيان لسحرا». فما يزعمونه من صعوبة اللغة العربية ، ويعيبونها به ، إنما هو فى حقيقة الأمر فضل وشرف ؛ لأن هذه اللغة إذ كان ذلك شأنها ، فإنها تزكى العقل وترهف الحس ، وتوسع المدارك ، حتى قال الجاحظ فى بعض كتبه يمتدح العَرب : « وليس فى الأرض صبيان فى عقول الرجال غير صبيانهم ، وكل شىء تقوله العرب فهو سهل عليها وبطبيعة منها ، وكل شىء تقوله العجم فهو تكلف واستكراه » .

وإنما ارتقى الأعاجم الذين دخلوا الإسلام ، وعاشوا فى ظله ، حين اتخذوا اللغة العربية لساناً ، فنبه ذكرهم ، وارتفع قدرهم ، بتعلمهم هذه اللغة منذ نعومة أظفارهم . وكان الصبى يعلم فى الكتاتيب أو على أيدى المعلمين حفظ القرآن إما جميعه وإما بعضه . ويروى عن كثير من الصبيان أنهم ختموا القرآن وهم فى العاشرة من العمر ، هذا فضلا عن حفظ الكثير من الأشعار وأخبار الأدب . والقرآن ديوان العرب ، وسجل لغتهم ، مَنْ حفظه استوعب إلى جانب صحة الدين ، واستقامة

الخلق ، والنور الذى يضىء قلبه من كلام الله ، البصر باللغة وسمو البيان. كان ذلك حال العرب فى أوج حضارتهم منذ ظهور الإسلام حتى القرن الثامن،أى إلى أوائل عصر النهضة الأوربية، حين كان التعليم منتشراً بين الخواص والعوام ، وكان حفظ القرآن أساس التعلم والتعليم ، فكان القرآن الذخيرة اللغوية التى تقوّم منطقهم وتفصح ألسنتهم .

ثم شاعت فتنة ترجمة القرآن ، « ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه ، والذى أنزل بلسان عربى مبين . وقد صدرت له ترجمات شتى ، أقدمها ترجمة لاتينية منذ القرن الثالث عشر . وله فى الإنجليزية ما يقرب من خمس أو ست ترجمات مختلفة يزعم صاحب كل واحد منها ، أنه أبرع من صاحبه ، وأن ترجمته أصدق سائر الترجمات . وهى كلها فى البعد عن الحق سواء ؛ لأنها إنما تنقل جسداً بغير روح ، ولفظا بغير معنى ، وتخسف ببلاغة القرآن وروعته وبيانه وحلاوته ، فتفقده بذلك سر العربية التى أنزل بها .

وإذا كانت ترجمة العلوم ممكنة ميسرة ؛ لأنها تقوم على مصطلحات دقيقة تشير إلى أمور معروفة ثابتة مادية ، فإن نقل الأدب والدين والشعر ، مما يحكى خواطر النفوس، من أصعب الأمور .

وقد قيل: إن تمثيليات «شكسبير» عسيرة على النقل إلى لغات أخرى فما بالك بالدين، وما بالك بالقرآن ومعجزته تقوم على البلاغة ! !

ذلك أن اللغة العربية تمتاز بخصائص لا تجدها فى أية لغة أخرى.

فهى إلى جانب أنها لغة فهم وبيان، ولغة إعراب، فهى لغة اختزال، فجميع اللغات الأوربية، وهى التى تفرعت عن اليونانية واللاتينية، تستعمل فعل الكينونة للربط بين المبتدأ والخبر، أو المسند والمسند إليه، بين ركنى الجملة. فأنت تقول: «العرب أشرف الأمم» فتصل بين العرب، وبين الشرف والرفعة إضماراً دون حاجة إلى النص على رابطة، كما هى الحال فى اللغات الأجنبية، فالجملة فى العربية ثنائية، وفى الأوربية ثلاثية، وفى هذا اختزال لثلث الكلام، ويتضح ذلك، عندما نترجم كتابا من الإنجليزية مثلا إلى العربية، فإننا نجد عدد الكلمات فى النص العربى، أقل من مثلها فى أصلها الإنجليزى.

ثم تختص العربية بحروف ليس لها مثيل فى أية لغة أخرى، مثل الضاد والطاء وغيرها. ولاختصاص اللغة العربية بحرف الضاد بالذات، سميت لغة الضاد. وللحروف دلالات كما للألفاظ، بل هى الأصل فى الألفاظ؛ لأن الحرف صوت، والصوت

يدل على معنى ، ومن اجتماع الأصوات فى حرفين أو أكثر ، تكونت الكلمات التى دللنا بها على المسميات المحسوسة ، ثم على المعانى الكلية ، التى يندرج تحتها آلاف من الأفراد . ومن الأصوات ما يدل بالطبع على الفخامة والقوة ، ومنها ما يدل على الضعف والنعومة . خذ الطاء مثلا تجد فيها فخامة لا تجدها فى التاء ، فلما نقل العرب أسماء اليونانيين ، ارتفعوا بهم من الرقة والنعومة إلى مرتبة القوة والفخامة . فهناك فرق بين قولك « ارستو تاليس » وبين قولك كما قال العرب « أرسطو طاليس » . والعرب أقدر على النطق بجميع الحروف وسائر اللهجات ، وعلى تقليد جميع الألسنة ، ومحاكاة كافة اللغات ، والأعاجم عاجزون عن محاكاة العرب وتقليدهم ، والنطق بحروفهم . وكان النخاس الذى يبيع الجوارى إذا أراد أن يمتحن لسان الجارية — إذا ظن أنها رومية ويزعم أصحابها أنها مولدة — بأن تقول : ناعمة ، وتقول : شمس ، ثلاث مرات ؛ لأن الروم يعسر عليهم نطق العين ، ويقلبون الشين سيناً . ألا ترى اليونانى إلى اليوم ينادى فيقول : « يامحمد » بالخاء ، مع أنه يكون قد أمضى فى مصر عمره ، وولد بها .

فإذا خرجنا من الحروف والألفاظ ، وانتقلنا إلى العبارات

والتراكيب ، رأينا اللغة العربية ، إلى جانب أنها لغة فهم وإيجاز وبيان وفخامة ، لغة فن وجمال وموسيقى ، سواء كان ذلك فى نثرها أو فى شعرها .

وقد اختصت العرب بالشعر وفخرت به غيرها من سائر الأمم. قال الجاحظ يصف هذه الخصائص فى كتاب له اسمه «الأخبار»(١) «كالعرب فإنها مخصوصة بأمور منها : البيان الذى ليس مثله بيان ، واللغة التى ليس مثلها فى السعة لغة ؛ وقيافة الأثر ... إلى أن قال :ـ

« وللعرب الشعر الذى لم يشاركهم فيه أحد من العجم .
وقد سمعت للعجم كلاماً حسناً ، وخطباً طوالا يسمونها أشعارا ؛ فأما أن يكون لهم شعر على أعاريض معلومة ، وأوزان معروفة — إذا نقص منها حرف أو زاد حرف ، أو تحرك ساكن أو سكن متحرك ، كسره وغيره — فليس يوجد إلا للعرب خاصة دون غيرهم » .

ويؤيد ابن سينا هذا الكلام ، وكان الشيخ الرئيس فارسيا ألف باللغتين ، وله فيهما شعر ، فهو إذ يحدثنا إنما يتحدث عن

---

(١) هذا الكتاب مفقود ، نقل عنه الأمير نشوان الحميرى فى كتابه «الحور العين» ص ٢١٧ .

تجربة واقعية ، وتمكن من اللسانين . قال فى كتاب جوامع علم الموسيقى : « وأنت تعلم أن كثيراً من الأوزان العربية ، إذا قرضت عليها الأشعار الفارسية ، كاد الذهن لا يشعر بتأثيراتها مع اتزانها ، ومع وجود الشرائط التى نذكرها بعد فى الوزن . — ولا سبب فى ذلك غير العادة — ، فيوشك أن يكون كثير مما هو مطبوع نقراً أو لفظاً ، فقد يجهله الطبع لاعتياده سواه .

فابن سينا يتفق مع الجاحظ فى اختصاص العرب بأوزان شعرية ، تتلاءم معها الألفاظ العربية ، حتى إذا أردت صب ألفاظ فارسية ، فى تلك الأوزان لم تشعر بموسيقيتها وتأثيرها . أما الجاحظ فيفسر هذه الظاهرة العجيبة بسكون المتحرك وتحرك الساكن فى الحروف . وأما ابن سينا فيرد ذلك إلى العادة والألفة ، حيث يقول قبل الكلام الذى نقلناه : « واعلم أن للعادة تأثيراً قويا فى جعل الألحان ، والإيقاعات ، والأوزان الشعرية ، مطبوعة وغير مطبوعة . فإن مالم يعتد ، وكان بالغا فى معناه ، طرأ على السمع وهو بالغ جداً فى التأثير ، فإن كان متوسطا أو معتدلا نفر عنه الطبع » .

وقد نفهم أن يكون لنظرية العادة أثر عند الشخص الذى

يجهل العربية، ولا يعرف أشعارها، ولم يعتد سماعها، ولا النطق بها. أما «ابن سينا» فعلى خلاف ذلك، فإن معظم تآليفه باللغة العربية، والقليل بالفارسية، وكان إلى ذلك متضلعا فى اللغة وأسرارها وتراكيبها، حافظاً القرآن، وهو ابن عشر سنين، راويا الكثير من الأدب وأشعار العرب. وهو نفسه، قد نظم الكثير من الشعر العربى، بعضه تعليمى، مثل: القصيدة المزدوجة فى المنطق، والأرجوزة فى الطب، وغيرهما، وبعضه شعر حكمة، وتجربة نفس، وحديث قلب، وله فى ذلك قصائد فى غاية الجودة، ترفعه إلى الطبقة الأولى من الشعراء. فكيف يزعم إذن أن العادة تنقصه بحيث إذا قرض شعراً فارسيا على أوزان عربية لم يحس بتأثيره؟. ولهذا السبب نحن إلى نظرية الجاحظ أميل، على الرغم من أن للعادة نصيبا غير قليل فى الشعور باللذة أو نفور الطبع.

ولهذا السبب الذى ذكره الجاحظ، كانت ترجمة الشعر العربى أقرب إلى المستحيل؛ لأن المدار فيه ليس على المعنى وحده، وإلا كان نثراً، وما امتاز الشعر على النثر، بل المعول فى الشعر العربى على المعنى والوزن معاً، وعلى حركة الحروف واجتماع المتلائم منها الذى تهش له النفس. فكل شعر يمكن ترجمته

إلى لغات أخرى ، ويحتفظ مع ذلك برونقه ، أو على الأقل بمعانيه التى لا تفقد شيئاً كثيراً عند نقلها ؛ ما عدا الشعر العربى الذى « لم يشاركهم فيه أحد من العجم » (كما قال الجاحظ) .

سر العربية وروحها أنها موسيقية بالطبع ، لا بالاستكراه والتكلف ، وتشيع هذه الموسيقى فى نثرها ، إذ موسيقى الشعر أمر مفروغ منه . أما فى النثر ، ونحن نقصد البليغ الذى يجرى على ألسنة الخواص ويحفظ فى صدور الرواة أو بطون الكتب ، فالموسيقية فيه مما اختصت به العرب فى الجاهلية ، و نقلت إلينا فيما يروونه من سجع الكهان ؛ ولذلك لما نزل القرآن يتحدى بلاغة العرب امتازت السور المكية بهذا الضرب من السجع ، الذى يجرى على فواصل ، و يقطع على أوزان . وقد حاول أحد المستشرقين أخيراً أن يرد ما فى القرآن من سحر و تأثير إلى موسيقيته ، وطبق ذلك على قصار السور ، ووضع لها بالفعل نوتة موسيقية ، كأنها شعر موزون . ونحسب أن هذه المحاولة فاشلة لأن المسألة ليست دائرة على الوزن فقط ، بل على الألفاظ التى تجرى مع هذه الأوزان ، وعلى المعانى التى تحملها تلك الألفاظ ، وعلى ترتيب الألفاظ ترتيباً معيناً وتأليفها تأليفاً متناسقاً . وقد رأيت ما ذكره ابن سينا من أن الشعر الفارسى

حين يوضع فى الأوزان العربية كيف يفقد اثره .

والسجع منه ما هو صنعة وتكلف ، ومنه ما يجرى مجرى الطبع فيزيد الكلام حلية ورونقا . وليس من الضرورى أن يكون السجع على قافية واحدة ، وإنما المهم هو التماثل والتقابل ، والوقف عند فواصل تشبه أن تكون موزونة . وقد جرى عمود الكلام العربى على هذا النسق ، منذ عصر الجاهلية حتى اليوم ، تجد ذلك فى كتابات ـ الجاحظ ـ وابن المقفع ـ وأبى حيان التوحيدى ، كما تجده فى مقالات ـ الزيات ـ وطه ـ والعقاد ـ وهؤلاء جميعاً ، ونحن كذلك وكل كاتب عربى أصيل ، إنما نفعل ذلك عن طبع لا تطبع ، واحتذاء لمثال المأثور من روح العربية فى التعبير والكتابة . وإنك لتحس فى كتابة المستشرقين بالغرابة على الرغم من اتباعهم القواعد ، ودقة التعبير عن المعنى ؛ لأنهم يصبون عربيتهم فى قوالب أجنبية .

وانت إذا فعلت ذلك حين تكتب باللغة الإنجليزية مثلا ، وأردت أن تقطّع الكلام ، وتجعله يجرى على وزن تحسه فى نفسك ، ويسيل على قلمك ، ويتصور فى تعبيرك ، عد ذلك منك تكلفا ، ونفر منه القارىء الإنجليزى لأنه يشذ عن المألوف فى كلامهم ، وما اعتادته أسماعهم .

فهذا سر العربية وروحها ، وبهذه الموسيقية انفردت عن سائر اللغات ، ونحن بالعربية راضون ، وبها متمسكون ...

وهذا السر الذى يجمل اللغة ، هو السر نفسه الذى يشيع فى سائر فنون العرب الأخرى ، ويميز حضارتهم على غيرها من الحضارات ، مما سنعرض له بعد قليل.

وإذا كانت اللغة بوجه خاص أعظم مقوم من مقومات القومية العربية ، فقد بثت القوميات المعادية — سواء من الفرس والترك شرقا ، أو من أوربا حديثاً — فتنة القول بأن اللغة العربية لا تصلح لحمل مشعل الحضارة والتعبير عن الحاجات الإنسانية ، والمعارف العلمية المتزايدة ، واقترحت أمرين أحلاهما مر ! وفى الأخذ بأيهما القضاء المبرم على اللغة العربية ! وفى القضاء على اللغة القضاء على القومية ، وما يصحب ذلك من انحلال وخور عزيمة ، فيتساقط العرب فى أيدى المستعمرين لقمة سائغة .

أما الفتنة الأولى : فهى إحلال العامية مكان الفصحى ؛ وأما الفتنة الثانية فاتخاذ لغة جديدة بدلا من العربية تشيع مع الاستعمال على الألسن ، وتقضى مع الزمن على العربية .

والدعوة إلى العامية دعوة خبيثة لأنها ترفع الأدنى وتخفض الرفيع ، تدعو إلى العامية وهى لهجة العامة المتحللة من القواعد

والأصول، والمتحررة من الأدب والدقة والذوق، والبعيدة البعد كله عن مستوى العلوم التي تزخر بالمصطلحات والتي لا يعرفها إلا الخاصة، وتغفل في الوقت نفسه الفصحى وهي ديوان العلوم والآداب والفنون، وعنوان حضارة الأمة ورقيها، بحجة صعوبة الفصحى والتزامها الإعراب في أواخر الكلمات، وتقيدها بقواعد النحو والصرف، واستعمال التراكيب وألوان البيان. وفي كل أمة الفصيح والعامي، ولغة العلم والأدب والتعليم، ولغة السوقة والشوارع. والفصحى في كل أمة تلتزم القواعد، وتجري على أصول تبلغ من الصعوبة في تعلمها ومعرفتها والبصر بها مبلغ اللغة العربية. ولم يظهر من ينادي في انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا بهجر الفصحى والنزول إلى مستوى العامية، ولن تجد من يقول مثل هذه المقالة إلا من به لوثة في عقله.

على أن أصحاب هذه الفتنة الخبيثة يسوقون حجة مزيفة فيقولون: إن أمم أوربا كانت تتكلم اللاتينية، ثم اخذت القوميات من عصر النهضة يشتد ساعدها، ونمت اللهجات المحلية في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا وانجلترا، وكانت لغة العلم والتأليف والتعليم هي اللغة اللاتينية، ثم استقلت هذه اللهجات

وتفرعت اللغات الأوربية الحديثة ، وهجرت اللاتينية وأصبحت لغة ميتة .

والقياس مع الفارق الشديد ؛ لأن الدول العربية لا تتكلم لهجات بعيدة عن العربية ، أو هى خليط بين لغة قديمة وبين العربية ؛ كما هى الحال فى ألمانيا مثلا ، لأنها خليط من الجرمانية واليونانية واللاتينية ؛ ولكن جميع الدول العربية تتكلم لغة واحدة هى اللغة العربية ، الخاصة والمتعلمون والمثقفون يتكلمون بالفصحى ويكتبون بها ، والعامة ينطقون بلهجة عامية لا يلتزمون فيها قواعد الفصحى ولا آدابها . ولذلك تجد الشاعر فى العراق كالشاعر فى المغرب ، بل الكاتب فى بيروت كالكاتب (فى بوينس إيريس) من جنوب أمريكا مع بعد الشقة ، ووجود محيط عريض يفصل بين القارتين .

وقد خفتت أصوات المطالبين باتخاذ العامية لغة رسمية ، وتفتيت القومية العربية تبعا لتفرع لغات عدة عن أم واحدة ، لأن الواقع : من تطور العرب فى هذا القرن ومنذ القرن الماضى ، أسكت حجتهم ، وأبطل فتنتهم ؛ ذلك أن الدول العربية ، مع الاستمرار فى التقدم وامتداد أثر النهضة وانتشار التعليم وما يتبع ذلك من انتشار المدارس والكتب والصحف ، ارتفع

عامتها بلغتهم ولهجتهم إلى مرتبة تقرب من الفصحى ولم تهبط الفصحى إلى مرتبة العامية . وهذه سنة التطور والتقدم ، إذ معنى التقدم السير إلى الأمام ، لا الرجوع إلى الوراء ، والسمو إلى مرتبة أعلى ، لا إلى مرتبة أدنى .

ومما أعان على تهذيب العامية ورفعها ، وسرعة تعلم العامة واقترابهم الشديد من الفصحى ؛ انتشار المذياع وما ينطق به صباح مساء ، حين يردد آيات القرآن الكريم بترتيل أشهر القراء ، وأرخمهم صوتا ، وأحسنهم لكلام الله ترتيلا ، ويذيع الأحاديث الأدبية ، والاجتماعية والسياسية ، من أفواه القادة والكتاب والمفكرين ، وأساتذة الجامعات وذوى الرأى فى كل فن وعلم ، ويرفه الأسماع بغناء المغنين والمطربات ينشدون أروع القصائد لأعظم الشعراء . وانظر إلى ملايين العرب من الناطقين بالضاد ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، ينصتون « لأم كلثوم » وهى تغنى : « ولد الهدى فالكائنات ضياء » أو قصيدة النيل لشوقى : « من أى عهد فى القرى تتدفق » ، وغير ذلك من روائع الشعر العربى بأفصح لسان ، ترى إلى أى حد يتمسك الناطقون بالضاد بعروبتهم ، ويعتزون بلغتهم ، ويقبلون على تعلمها فى شغف ، ولا يجدون مشقة

او عسراً فى فهم آيات الله ، أو أحاديث الكتاب ، أو قصائد الشعراء ، ثم قل : للذين يدافعون عن العامية ، ويعملون على تأييد قضيتها ، كيف تسنى لهؤلاء الأميين من العامة أن يفهموا الفصيح من كلام العرب ، وأن يستوعبوا ويستسيغوا هذه اللغة الوعرة فيما تزعمون ؛ ومن أجل ذلك تراجع أصحاب هذه الفتنة ، ودخلوا الجحور ، ولم يعد يسمع لهم صوت .

وأما الفتنة الثانية ، فإنها أعظم على العربية خطراً ، وأشد أثراً ، لأنها تعمل على خلع العرب من لسانهم ، الذى يدل على عروبتهم ؛ لتدخلهم فى لسان آخر أعجمى ، زاعمة أن اللغة العربية غير صالحة لمسايرة الحضارة الحديثة ، وأنها لا تتسع للتعبير عن العلوم الجديدة السريعة التقدم ، وأنها قاصرة عن الوصف والدلالة . ونشر المستعمرون فى معظم البلاد العربية مدارسهم . هذه تعلم باللغة الفرنسية ، وهذه بالإنجليزية ، وتلك بالإيطالية ، أو بالألمانية . وقد أفلح المستعمرون فى اجتذاب عدد كبير من أبناء العروبة ، وانخدع بدعواهم كثير من الناس ، غير أن النهضة السياسية والبعث الوطنى ، فطن إلى خطورة هذه الحالة ، وخشى قادة الرأى ، إذا استمرت المدارس على نشر اللغات الأخرى ، أن ينتهى الأمر بنسيان العربية وتدهورها ،

فوضعت للتعليم الأجنبي حدا . والحق أنك لا تجد أمة من الأمم ، تفسح المجال لتعليم أبنائها لغات غير لغاتهم سوى ما كان سائداً فى البلاد العربية قبل النهضة الأخيرة .

خذ مثلا : حالة التعليم فى مصر منذ خمسين عاما ، حين كان الإنجليز مسيطرين على الأمور يدبرونها كيف يشاءون ، كانوا يعلمون الطلبة فى المدارس الثانوية شتى العلوم كالتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء باللغة الإنجليزية ، كأن اللغة العربية عاجزة عن القيام بالتعبير عن هذه العلوم المختلفة . وقد ذهب ذلك العصر البغيض واستعادت اللغة مجدها ، وأثبتت وجودها ، وقامت على أقدامها .

وكيف استطاعت العربية فى القديم أن تتسع للعلوم المختلفة ؟ لقد نقل العرب فى عصر الترجمة ، علوم الفلك والطب ، والهندسة والطبيعة والفلسفة ، عن اليونانية وعن الفارسية والهندية ، وحفظت تلك العلوم التى كادت تندرس مع تدهور الحضارة الغربية ، وشيوع الجهل فى العصر الوسيط ، وحين نقلت أوربا هذه العلوم مرة أخرى ، ترجمتها عن العرب بعد أن تقدموا بها خطوات واسعة إلى الأمام . ومن دلائل حيوية اللغة العربية ، ومسايرتها للحياة ، أنها لم تر بأساً من اتخاذ المصطلحات الأجنبية

وتعريبها ، وإدماجها فى بنية اللغة وقاموسها ، فعلت ذلك قبل الإسلام ، فنحن نرى ألفاظا كثيرة ، بعضها فارسى ، وبعضها يونانى ، درج فى اللغة وأصبح جزءاً منها ، واستعمل فى القرآن نفسه مثل : سندس وإستبرق ، وغيرهما من عشرات الألفاظ الأجنبية . وكذلك فعلت بعد الإسلام ، وبخاصة فى الاصطلاحات العلمية ، وأنت تعرف أن لفظة « فلسفة » يونانية ؛ وهى مركبة من مقطعين هما «فيلو» بمعنى محبة «وسوفيا» بمعنى حكمة ، فكانت « الفلسفة » هى محبة الحكمة . ولفظة موسيقى يونانية كذلك . وهذان وأشباههما ، لا نزال نستعملها فى لغتنا العربية حتى اليوم ، وقد يجهل الكثيرون الأصل الذى أخذت عنه . وكذلك كثير من ألفاظ الحضارة الجارية فى الحياة اليومية ، مثل : الخيار ، وهى فارسية ، والعرب يقولون القثاء ؛ وانظر إلى لفظة السوق أو السويقة سماها أهل البصرة «وازار»وهى فارسية ، ثم انتقلت إلى اللغات الأوربية فأصبحت« بازار » . ومثل ذلك ما فعله العرب حين نقلوا فى الحساب الصفر عن الهنود ، وكان اليونانيون يعدون من الواحد لأنه أول العدد ، ثم نقله الأوربيون عن العرب فقالوا بالفرنسية : « شِفْر » وبالإنجليزية « زيرو » .

لقد كانت اللغة العربية واسطة لنقل الحضارات، وتفاعلها بين الشرق والغرب. وهذا اصل من أصول القومية العربية، فرضته عليها مكانتها المتوسطة - جغرافيًّا - بين دول الشرق مثل فارس والهند، والصين ودول الغرب فى أوربا. واللغة عنصر من عناصر الحضارة، وأعظم أداة من أدواتها، وسنرى أن هذا الدور الذى قامت به اللغة من التوسط بين الشرق والغرب قامت به العناصر الأخرى الحضارية من علوم وفنون وآداب وصناعات.

صفوة القول :- اللغة العربية لغة أدب وفن ودين وعلم، استطاعت -ولاتزال- أن تعبر عن جميع المعانى التى تدور فى خلد الإنسان، سواء أكانت هذه المعانى تصف خواطر النفس وخوالج الوجدان، كما تعبر عن أحوال الناس فى سلوكهم ومعاملاتهم، وصلة بعضهم ببعضهم الآخر، وعلى الجملة أحوال العمران ودواعى التعايش والاجتماع، كما تدل على ما يرغب علماء الرياضة والطبيعة أن يفسروا به ظواهر الكون من قوانين. وهى إلى ذلك غنية بوصف الحياة اليومية، وما يدور بين الناس كل وقت وهم يأكلون ويشربون ويلبسون شتى أنواع النسيج، ويقطنون الدور، ويستعملون فيها أدوات الراحة والأثاث الذى

يجلسون إليه ، ويتكئون وينامون عليه ويتوسدونه ، إلى أنواع اللهو والتسلية ، ووسائل النقل والمواصلات ، وأدوات الحرب والقتال ، وغير ذلك من لوازم المعيشة الجارية . ولغة هذا شأنها ، هى لغة حضارة بكل ما تحمل الحضارة من معنى ، ولعل هذا هو السر فى صمود هذه اللغة أربعة عشر قرنا من الزمان ، تجرى على الألسن وتدون فى الكتب ، على الرغم من عدوان جيرانها وتآمرهم عليها. ولو لم تكن العربية لغة حضارة، ما استطاعت الوقوف على أقدامها ومقاومة تيار اللغات الأخرى الجارف . وإذا كانت القومية إنما تستند إلى الحضارة ، وتتماسك إذا كانت هذه الحضارة أسمى من غيرها من الحضارات ، أو على الأقل لا تدنو فى منزلتها عنها ، وكانت اللغة العربية أعظم أساس فى بناء حضارتها حتى لقد سميت باسمها ، نعنى سميت القومية باسم اللغة ، فلا غرابة أن يقوى ساعد القومية العربية ، كلما نفخ فى صور اللغة واستعادت حيويتها وقوتها ومجدها .

وهذا الرأى الذى يرد القومية العربية إلى اللغة ليس رأينا وحدنا ، بل نادى به كثير من المستشرقين ومنهم الأستاذ « نللينو » الذى انتدب للتدريس فى الجامعة المصرية عقب افتتاحها ، وألقى محاضرات سنة ١٩١٠ فى تاريخ علم الفلك عند العرب ، جاء

فيها : « كلما يكون الكلام عن زمان الجاهلية أو أوائل الإسلام لا شك أن كلمة العرب مستعملة بمعناها الحقيقى الطبيعى ، المشير إلى الأمة القاطنة فى شبه الجزيرة المعروفة بجزيرة العرب . ولكن إذا كان الكلام عن العصور التالية للقرن الأول من الهجرة اتخذنا ذلك اللفظ بمعنى اصطلاحى ، وأطلقناه على جميع الأمم والشعوب الساكنين فى الممالك الإسلامية ، المستخدمين اللغة العربية فى أكثر تآليفهم العلمية ، فتدخل فى تسمية العرب الفرس والهند والترك والسوريون والمصريون والبربر والأندلسيون وهلم جرا ، المتشاركون فى لغة كتب العلم وفى كونهم تبعة الدول الإسلامية . ولو لم نطلق عليهم لفظ العرب كدنا ما نقدر أن نتحدث عن علم الهيئة عند العرب لقلة البارعين فيه من أولاد قحطان وعدنان » .

ومن الواضح أن القضية التى يعرضها الأستاذ « نللينو » ويدافع عنها ، هى رد القومية العربية إلى اللغة لا إلى الدين ، على الرغم من امتزاجهما وبخاصة فى العصر الذى يتحدث عنه وهو عصر ازدهار العلوم عند العرب ، وعلى رأسها علم الهيئة أو علم الفلك ولهذا السبب جاء فى عبارته قوله : « الساكنين فى الممالك الإسلامية المستخدمين اللغة العربية » وقوله : « المتشاركون فى لغة كتب

العلم وفى كونهم تبعة الدول الإسلامية » .

والعلة التى يستند إليها « نللينو » فى نسبة العلوم إلى العرب من جهة لغتهم ، لا نسبتها إلى الإسلام من ناحية دينهم ، أن لفظ الإسلام عند قولنا علوما إسلامية أو فلسفة إسلامية ، يخرج النصارى واليهود والصابئة ممن كان لهم نصيب غير يسير فى العلوم والتصانيف العربية، وبخاصة فيما يتعلق بالرياضيات والفلك والطب والفلسفة . كما أن من المسلمين من ألف بلغات خلاف العربية كالفارسية والتركية ، ولذلك رجح « نللينو » أن تكون النسبة إلى لغة الكتب لا إلى دين الأمة .

والرأى الذى نذهب إليه ـ ونحن بصدد البحث فى أصول القومية العربية ، وفى فلسفة هذه القومية ـ أن القومية العربية لا يمكن ردها إلى عنصر واحد فقط ، فهى ثمرة حضارة خاصة ، هى الحضارة العربية ، التى كان أبرز عناصرها اللسان العربى ، وفى الوقت نفسه كان هذا اللسان هو لغة كتابها وقرآنها ودينها ، كما كان لغة علومها وآدابها وفنونها . ونحن لا نفصل فى هذه الحضارة بين لغتها وبين دينها ، أو بين علومها وبين آدابها .

الدين

تمهيد

رأى الباحثين فى القوميات وأصولها التى تتكون منها . أيكون الدين عاملا أم ليس عاملا من عواملها ؟ فمنهم من يدخل الدين فى جملة هذه العناصر ، ومنهم من يستبعده .

غير أننا إذا استقرأنا التاريخ رأينا أنه ما من أمة خلت من دين ، مهما يكن أمر هذا الدين ، سماويا كان أو غير سماوى . وإلى ذلك يذهب « برجسون » فى كتابه « ينبوعا الأخلاق والدين » . حيث يقول ما فحواه : إننا قد نجد أمة تخلو من العلم أو الفن ولكننا لا نجد أمة تخلو من دين .

وإذا كان الأمر كذلك فلابد لنا من النظر إلى الدين حين ننظر فى أمر القومية . يقول الأستاذ أحمد خاكى فى كتاب « فلسفة القومية » عن الدين حين تحدث عنه كعامل روحى من عوامل القومية بوجه عام دون نظر إلى القومية العربية بالذات ما نصه : « فهو أيضا عامل روحى فعّال يؤثر فى الخلق القومى ، وهو أيضا قابل للتعديل . والأصل فى كل دين أن يكون عالميا جامعاً ، على أننا لا نقصد الدين السماوى فقط ،

ولا انواع العبادات فقط ، وإنما نقصد ، أيضا تلك العلاقة التى يحسها الفرد بينه وبين الله ، ثم نقصد بعض العقائد التى يحلها بعض الناس محل الإيمان الدينى .... » إلى أن قال عن الإسلام وأثره فى تقوية دعائم القومية العربية : « على أنّ أثر الروح الدينى فى خلق الأمم وفى رقيها وانتشار حضارتها يبدو واضحا فى تاريخ العرب بعد الإسلام . فقد شاعت بين المسلمين الأولين عقيدة واحدة ألفت بين أفرادهم ، وكانت هذه العقيدة من مصادر القوة حين آمن بها ونافح عنها سوادهم الأعظم .... » ويقول بعد ذلك : « ولم تقم جماعة فى العالم ، ولم تقم قومية فى التاريخ إلا كان لها أساس دينى تستمد منه عقائدها ، فللدين قيمة التوحيد بين الأفراد .... »(١)

وإلى مثل ذلك يذهب باحث آخر هو الأستاذ محمود اللبابيدى ، إذ كتب عن الإسلام والقومية العربية يقول : إن القومية تتألف فى نظره من عناصر أربعة هى : اللغة ، والأرض ، والدين ، والتاريخ . وأن « الذين أسقطوا الدين من عناصر القومية ووضعوا الثقافة المشتركة محله ، لم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم

---

(١) فلسفة القومية للأستاذ أحمد خاكى ـ مجموعة اخترنا لك ـ ص ٥٣ ـ ٥٩

عبروا عن الدين فى صيغة أخرى. كما فعل «ستالين» فى تعريفه فإنه يقول: «إن الأمة الحديثة (أى القومية) جماعة ثابتة ليست عرضية، تألفت تاريخيا.... ذات تكوين نفسى مشترك، يجد له تعبيرا فى الثقافة المشتركة». فإنه لم يفعل أكثر من التعبير عن الدين بالثقافة، ثم مضى الأستاذ يوازن بين مفهوم القومية عند الغرب ومفهوم القومية عندنا، وأن الدين فى الغرب يقوم على التعصب وفى الشرق على التسامح؛ ولذلك لا خوف من أن يعد الإسلام من أركان القومية العربية[1].

ويقول الأستاذ عبد المنعم خلاف فى كتابه «مع العروبة فى ربع قرن: «إن الأمة العربية الحالية يربطها رباطان خالدان هما: اللغة التى يتكلم بها الجميع، والدين الذى تدين به الأكثرية الساحقة»[2]

أما أصحاب النزعة الأخرى الذين يجعلون القومية أعلى من الدين، بل فى بعض الأحيان قد يستبعدون الدين من عناصر القومية، فيحتجون بأن فكرة القوميات إنما ظهرت فى القرن الثامن عشر، وبوجه خاص فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية ثم

---

(١) مجلة الأزهر مايو ١٩٥٩

(٢) مع القومية العربية لعبد المنعم خلاف، ص ٣٥

فى إبانها وبعدها ، ولا تزال القوميات مشتعلة منذ ذلك التاريخ حتى اليوم فى جميع أرجاء العالم ، وقد حملت الثورة الفرنسية فى طياتها ثورة على الدين كما قوضت أركان الملكية والنظام الاجتماعى ، وانتهت ثورتها على الدين إلى فصله عن الدولة ، فأصبحت كما يقال « علمانية » . وانتشرت هذه الروح المعادية للدين ، المحطمة له ، المقوضة لأركانه ، فى دول أخرى ، مثل أسبانيا بعد ثورتها الأخيرة فى هذا القرن ، ومثل الثورة الروسية التى غالت فى حربها ضد الدين وعدته « أفيون الشعب » .

ويمكن أن نقول بوجه عام : إن القرن التاسع عشر فى أوربا شهد ابتعاد معظم الناس عن الروح الدينية باسم العلم ، ولكن هذه النزعة الإلحادية أخذت تخف وطأتها شيئا فشيئا باسم العلم أيضا فى القرن العشرين ، وبخاصة بعد تفتيت الذرة ومعرفة أسرار المادة . فالعلة فى استبعاد الدين عند كتاب الغرب من أصول القومية يرجع إلى هذه الظروف التاريخية ، والتى تختلف اختلافا عظيما فى الشرق عنها فى الغرب .

ومن الباحثين العرب من تأثر بالمباحث الأوربية بعض الشىء ، فأغفل الدين من عوامل القومية ، أو جعله فى موضع ثانوى ؛ ومنهم من وقف من الدين موقفا صريحا حاسماً مستبعدا إياه .

يقول الأمير مصطفى الشهابى فى محاضراته القيمة عن القومية العربية : « ذكرت فى الصفحة ٣٤ أن تعريف العربى عند رجال القومية العربية الأولين هو أن : « العربى من تكلم العربية وأراد أن يكون عربيا » .

« ومن الواضح أنّ هذا التعريف يشمل كل عربى أيا كانت ديانته أو طائفته أو عنصريته ، وجميع العرب والمستعربين سواسية فى عقيدة القومية العربية سواء أكانوا مسلمين من سنيين وشيعيين ودروز وعلويين وإسماعيليين ، أم كانوا نصارى من موارنة وأقباط وروم وسريان وكلدان وأرمن على المذاهب الثلاثة الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية . . . . ولما كان معظم سكان البلاد العربية مسلمين ظن بعض الناس أن نزعة القومية العربية هى النزعة الإسلامية نفسها ، على حين أن هنالك فرقاً بين النزعتين . . . .

ومهما يكن من أمر فالقومية العربية لا تتنكر للأديان ، بل تحترمها . فعلى العربى المسلم أن يعبد ربه جل وعلا فى مسجده ، وعلى العربى المسيحى أن يعبده فى بيعته . وفى وسع كليهما أن يؤمنا بالقومية العربية ، وأن يعملا يدا واحدة فى خير العروبة . . . . »[١]

---

(١) القومية العربية للأمير مصطفى الشهابى ص ٣٤٣ — ٣٤٥

ونتقل إليك رأى باحث آخر يرى صراحة استبعاد الدين من عوامل القومية العربية ، هو الدكتور معروف الدواليبي أستاذ القانون بجامعة دمشق قال : « ولعل من أهم النظريات التى يجب أن نقف عندها قليلا هى نظرية وحدة الدين ، وإقامة القومية عليها .

ولهذه النظرية عندنا معشر العرب أهمية خاصة لما كان للإسلام من أثر عظيم فى تاريخ وحدة العرب ، وفى تاريخ وحدة لغتهم ، وفى تضخيم هرم العروبة فى الأرض وفى السكان ، وفى بعثهم بعثا جديدا خالدا ، مما جعل الإسلام جزءاً من تاريخ العروبة منذ البعث الإسلامى . وهذا مما لا ينكره أحد .

غير أن هذا الأثر للإسلام فى تاريخ العروبة لا ينبغى له أن يخرجنا من موضوعنا وهو القومية ورابطتها ، إلى الدين ورابطته . ولا ينبغى معه أن يلتبس علينا الأمر ما بين دائرة القومية ، وما بين دائرة الدين ، وأن يثير منافسة ما بين الإسلاميين العرب ، وبين القوميين غير الإسلاميين من العرب تارة ، وما بين المسلمين من العرب تارة ، وما بين المسلمين العرب أنفسهم تارة أخرى ، فيتهم القومى من هؤلاء ضعف عُروبة المتزمت ، ويتهم المتزمت ضعف الدين لدى القومى ، ويثير كل منهما حربا عوانا على أخيه .

فقد يكون المترمت ضعيفا فى عروبته وليس ذلك الضعف ناشئا عن الإسلام ، لأن فى الإسلام وفى أركانه دعوة خالدة للعروبة ، وتثبيتا لأركانها لاشك فيه ، فينبغى معالجة هذا الضعف فى نفس المترمت ، وقد يكون القومى المسلم ضعيفا فى إسلامه ، وليس ذلك ناشئا عن عروبته ؛ لأن الإسلام قد دخل بلا شك أيضا فى أمجاد العروبة وتاريخها فوحدها جماعة ولغة ودولة ، وبعثها بعثا جديدا دائما ، وحملها رسالة إنسانية خالدة لتكون العروبة بها خير أمة أخرجت للناس ...

هذا وقد يكون لهذا النزاع سبب لو أن الموضوع واحد ، ولكننا نبحث القومية وعناصرها الثابتة العالمية لدى كل أمة ، ولا نبحث عن الدين وما قد يكون له من أثر لدى أمة دون أخرى .

فالعرب كانوا عربا فى الجاهلية ولم يكونوا مسلمين ، ولا ينكر ذلك أحد من المتنافسين . وكان العرب فى الجملة حينذاك وثنيين ، ولم يكونوا بذلك غير عرب ، بل ولم تكن الوثنية شرطا لعروبتهم ، بل كان فى العرب منذ ذلك العهد

الجاهلى يهود ونصارى ، فلم يخرجوا بذلك عن عروبتهم لدى أحد من الباحثين .

وهذا مما يؤكد لنا أن دائرة القومية غير دائرة الدين ، وأن موضوعيهما مختلفان . . . .

وبناء على هذه الوقائع الصحيحة لا يمكن أن نعتبر الدين فى الجملة عنصراً أساسياً من عناصر القومية العربية ، فقد تغيرت العقائد لدى العرب جملة من وثنية شاملة إلى إسلام شامل إلا قليلا فى كلا العهدين الوثنى والإسلامى ، وظل العرب عربا ، أمة واحدة ، وقومية واحدة . . . . . »[1]

وإلى مثل هذا الرأى الذى يفصل بين القومية والدين فصلا حاسما يذهب الدكتور جورج حنا فى كتابه « معنى القومية العربية » حيث يقول : إن العروبة ليست الإسلام ، والإسلام ليس العروبة .

ويتوسط المؤلفان محمد فوزى ومحمود حافظ ، فيفصلان بين معنى القومية وبين معنى الدين ، ويذهبان بعد ذلك إلى أن العروبة دعوة إلى تآخى العربى المسلم والعربى المسيحى . وهذا

(١) القومية العربية فى حقيقتها ، للدكتور معروف الدواليبى [كتب قومية — العدد التاسع ... ١٩٥٩] ص ١٩ — ٢٠ .

نص ما يقولانه : « والقومية — وإن كان أساسها عند البعض وحدة الدين — إلا أنها ليست دعوة دينية . فالعروبة مثلا ليست دعوة إلى إسلام ، بل هى دعوة إلى تآخى العربى المسلم والعربى المسيحى ، فقد عملا معاً من أجل العروبة ، ولم تميز بينهما سنابك خيول الغزاة وهى تطوى أرض العروبة ، ولم يتخلف أحدهما عن الجهاد لتحريرها ؛ ولذلك فمن الجحود ألا يذكر المتعصبون العروبة إلا ويلحقونها بكلمة الإسلام . ومن الخطأ أن يحذر المتعصبون من المسيحيين العروبة لخوفهم منها على المسيحية . »(١)

لا أود مناقشة أحد من الذين أوردت بعض أقوالهم ، ولكنى أعرض فقط القضية ، لنتبين منها مدى الخلاف بين الباحثين فى الرأى الذى يذهب من النقيض إلى النقيض .

ولكنى قبل أن أمضى فى البحث أحب أن أشير إلى أن الدكتور الدواليبى يرد القومية إلى عنصرين لا غير ، هما : اللغة العربية ، والتاريخ المشترك ؛ ولهذا السبب فإن تعريف العربى عنده هو « كل من يتكلم اللغة العربية ، ويكون كيانه حصيلة

---

(١) دراسات فى القومية العربية ص ١٣

تاريخ قومها ، دون أن يحد من ذلك قطر ، أو تقف دونه إرادة شخص ، فمن مراكش إلى العراق ، ومن السودان واليمن إلى أقصى شبه الجزيرة فى شمالى الشام أمة عربية واحدة ، ذات قومية واحدة ، لأنهم يتكلمون لغة عربية واحدة ويجمع بينهم تاريخ واحد ، وآلام واحدة ، وآمال واحدة . . . »[1]

وقد كان الإسلام منذ ظهوره جزءاً لا يتجزأ من تاريخ العرب ، فنحن إذا نظرنا إلى الإسلام ، بل إلى الأديان الموجودة فى هذه المنطقة العربية ، فإنما ننظر إلى تاريخ مشترك كان له تأثير قوى على العرب سواء قبل إسلامهم حين كانوا يهوداً ونصارى ومشركين ، أم حين دانوا بالإسلام إلى جانب الأديان الأخرى .

فالدين الذى نقصده ليس الإسلام وحده ، وإنما الأديان السماوية التى هبطت فى هذه المنطقة ، فكانت شجرة إلهية باسقة تفرعت فروعاً ثلاثة .

فإذا كان الأوربيون يغفلون من حسابهم ، أو يغفل بعضهم من حساب القومية عامل الدين ، فذلك لأن أية دولة أوربية ،

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

حتى إيطاليا نفسها مهد الكاثوليكية اليوم ومركز البابوية ، لم تكن يوما من الأيام مهبط وحى ولا منبع رسالة ، فضلا عن قيام تاريخ طويل وثنى سابق على اصطباغها بالمسيحية ، ولا تزال الأفكار الوثنية متغلغلة فى جملة حضارتهم حتى الوقت الحاضر ، و قد لقيت المسيحية صراعاً عنيفا من وثنية الرومان ، وفلسفة اليونان ، يعرف ذلك كل من له إلمام بسيط بالتاريخ .

ولكن الشرق الأوسط كان مصدر النور السماوى ، ومنبع الديانات التوحيدية ، ومصدر الرسالات والنبوات ، وحين « أراد أيزنهاور » أن يضع لأمريكا إصبعا فى الشرق وحجة للتدخل ، أشار إلى أهمية هذه المنطقة لا من الناحية السياسية والجغرافية والاقتصادية فقط ، بل لأنها ذات تاريخ روحى عميق الجذور امتدت أشعته إلى سائر أنحاء العالم .

فإذا كان الأغراب عن المنطقة يطمعون فيها معتمدين على حجة الدين ، فإن أربابها وأهلها وأصحاب قوميتها أولى بأن يتمسكوا بقوميتهم فيها على هذا الأساس . وقد أشار الرئيس جمال عبد الناصر إلى ذلك فى كتاب فلسفة الثورة حين تأمل فى عناصر قوة العرب وحاول أن يحللها فكانت أول هذه المصادر فيما يقول : « إننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ،

المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب . وإن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، لا يمكن قط إغفالها فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام » .

نحن إذن حين نجعل الدين أصلا من أصول القومية العربية إنما نعتمد فى ذلك على التاريخ المشترك لسكان هذه المنطقة ، والماضى الطويل الذى انحدر مع الزمان جيلا بعد جيل ، ولا يمكن أن تتنكر الأمة العربية لهذا التراث الروحى دون أن تفقد شخصيتها التى بها تتميز . والدين فى جوهره سمو بالنفس ، ودعوة إلى الخير ، وإيثار للمثل العليا ، وجماع هذه الخصائص الروحية هى التى امتاز بها العرب منذ نشأوا من أقدم التاريخ حتى اليوم ، وهى التى عملت على حفظ العروبة على مر الزمان صامدة إزاء ما تعرضت له من هجمات .

وقد تعرض العرب خلال تاريخهم لكثير من الهجوم على دينهم بغية إفساد نزعتهم الروحية السامية ، فقد تعرضت الحنيفية ، وهى ديانة إبراهيم للانحراف حتى انتهى العرب فى الجاهلية إلى عبادة الأصنام التى تقربهم إلى الله زلفى . وجاء الإسلام فأعاد لهم الدين الصحيح ، وتعرض الإسلام منذ ظهوره لنزعات

كثيرة من الزندقة والإلحاد ، وانتشرت الفتن التى تبغى التحلل من الدين ، ولكن الحكام والخلفاء وقفوا فى سبيل هذه الفتن، وقضوا عليها ؛ لأن بقاء الأمة رهن باحتفاظ أبنائها بالقيم الروحية والتمسك بها . وكان مصدر هذه الفتن فى الغالب ما كان يبثه أعداء العرب من دعوة إلى التحرر من الدين ليكون ذلك سبيلا إلى انحلال العرب وانهيارهم ، وسهولة وقوعهم فريسة فى أيدى خصومهم .

وإذا كان التاريخ يعيد نفسه كما يقال ، فالمستعمرون فى الوقت الحاضر يلجأون إلى نفس الأسلوب الذى طعن به العرب قديما، نعنى بث الدعوة بين أبناء الناطقين بالضاد أن يتخلوا عن دينهم ، مسيحيا كان أم إسلاميا ، بدعوى أن التمسك بالدين بدعة قديمة لا تتفق مع العصر الحديث .

والغريب فى الأمر أنك تجد هجوماً شديداً على الدين وعلى المتدينين ، فى الوقت الذى تقوم فيه إسرائيل على أساس من الدين فقط . والأغرب فى ذلك أن دعاة الإلحاد والفتن الدينية فى كل عصر كانوا من اليهود . وأنت تعرف فتنة عبدالله بن سبأ زمان على بن أبى طالب رضى الله عنه ، حين رفعه إلى مقام الألوهية، وغالى فى شأنه مغالاة شديدة لبث الفرقة بين صفوف المسلمين

وقسمتهم إلى فرق مختلفة ومذاهب شتى ، يكفر بعضهم بعضهم الآخر ، ويضرب بعضهم بعضا ، فإذا انقسمت الأمة شيعا كان ذلك مدعاة إلى الانقسام والانحلال . وفى العصر الحديث بث « كارل ماركس » فتنة الشيوعية ، ومن دعائمها التنكر للأديان ، والزعم بأنها كانت تصلح لزمان غير هذا الزمان الذى يدين بالعلم ويتخذه له إماما . وما من أمة قلبت للأديان ظهر المجن إلا فقدت الرابطة الروحية التى تعمل على توحيدها ، فلا تلبث قوميتها أن تتبدد بعد زمن قصير .

والرأى عندنا أن المستعمرين يحاولون النيل من القومية العربية بحل لغتهم ، ومحاولة إبدال العامية مكان الفصحى تارة ، أو بحل دينهم والتنكر له ليفقدوا الأساس الروحى الذى يؤلف بينهم تارة أخرى ، وهم لايميزون فى ذلك بين إسلام ومسيحية ، بل يودون العصف بجميع الأديان على حد سواء ، فالإسلام والمسيحية كلاهما فى خطر من الإلحاد .

ولكن العرب كما تمسكوا بلغتهم فهم متمسكون بدينهم .

* * *

كان العرب أصحاب دين فى الجاهلية ، والقرآن أصدق واقدم مصدر يصور لنا ما كان يسود بينهم من أديان . ففى سورة البقرة

يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [البقرة — ٦٢]

وجاء في سورة المائدة : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . [المائدة — ٦٩]

وفي سورة الحج نجد إلى جانب المؤمنين والصابئة واليهود والنصارى ، المجوس والمشركين ، وذلك في قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد » [الحج — ١٧]

ومعنى ذلك أن جزيرة العرب كانت تموج بالأديان من كل لون ، فيها اليهودية والنصرانية وهما دينان سماويان ، وفيها الصابئة والمجوس ، والصابئة دين انتشر في العراق ، والمجوس ديانة الفرس ، وفيها المشركون وهم الذين كانوا يعبدون الأصنام ويشركون مع الله إلهاً أو آلهة آخرين . أي أن العرب قبل الإسلام كانوا متدينين سواء أكان ذلك الدين هو الحق أم لم يكن كذلك . وفي ذلك أشار القرآن الكريم في خطاب محمد إلى

الكافرين ووصفهم بانهم أصحاب دين : « قل يا ايها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ». وسنذكر بالتفصيل ديانة العرب المشركين واعتقاداتهم ، وذلك بعد أن نذكر كلمة عن الديانات الأخرى ، ماعدا اليهودية والنصرانية لأنهما معروفتان .

أما « الصابئة » فديانة يحيط بها الغموض ، ولو أنها لا تزال موجودة حتى اليوم فى العراق ، ويشتغل أصحابها ببعض الحرف مثل صياغة الذهب والميناء . واعتراف القرآن بالصابئة دينا كاليهودية والنصرانية يدل على أنها ذات كتاب ونبوة ، وأنها تعترف بالواحدالقهار خالقاً للكون ، إلا أنهم على الجملة انحرفوا عن الديانة الأصيلة وتقربوا إلى الكواكب واتخذوا منها وسطاء يقربونهم إلى الله ؛ ولذلك قيل إنهم عبدة الكواكب ، وكانوا فى صدر الدولة العباسية يسكنون مدينة حران ؛ ولذلك سموا الصابئة الحرانية . ويذكر ابن النديم فى الفهرست قصة خلاصتها أن المأمون اجتاز ديار بكر قاصدا غزو الروم فتلقاه الناس وكان بينهم جماعة من الحرانيين ، يلبسون الأقبية وشعورهم طويلة جدا ، فأنكر عليهم المأمون زيهم وسألهم أنصارى أنتم ؟

قالوا : لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا : لا . قال أفمجوس أنتم ؟ قالوا : لا . فغضب المأمون وقال إذن أنتم عبدة الأوثان ، وأنتم حلال دماؤكم . فذهبوا إلى شيخ فاضل من فقهاء حران وسألوه عن دينهم أهو من الأديان السماوية ، فأجابهم إنهم الصابئون المذكورون فى القرآن .

والمجوسية ديانة الفرس ، يعتقدون فى أصلين هما : النور والظلمة ، أو الخير والشر ، وأن بينهما صراعاً دائماً ينتهى بغلبة الخير . وهم يعظمون النيران ، ويوقدونها ، ويقدسونها .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن دين « زرادشت » الأصلى كان من الأديان السماوية ، وأن « زرادشت » هذا كان من الأنبياء . ولذلك وصل القرآن بين المجوس والنصارى والصابئين واليهود والمؤمنين فى سورة الحج التى ذكرناها ، وانتقل إلى « الذين أشركوا » ولم يقل والمشركين حتى لا تكون عطفا على أصحاب الأديان الأخرى . وفى قصة المأمون وحواره مع الحرانيين ما يدل على اعترافه بالمجوس ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانت أمه فارسية ، وقد ذكرنا من قبل أن الفرس كانوا أمة ذات حضارة عريقة ، ولم ينسوا قط أن سقوط دولتهم كان على أيدى العرب ، وأنهم حاولوا طعن العروبة بكل حيلة ومن أى جهة ، وكان سبيلهم

إلى ذلك نشر الفرقة فى الدين ، فكانوا هم الذين احتضنوا الشيعة وأيدوهم بالمال والرجال والسلاح . ثم أرادوا أن يطعنوا العروبة من جهة الدين ؛ قال الإسفراينى صاحب كتاب التبصير فى الدين : « وقد كان منهم من جملة البرامكة من سعى فى إظهار عبادة النار بين المسلمين ، فقال لهارون الرشيد : ينبغى أن ترتب فى الكعبة إحراق العود والند ، ليكون ذلك أثرا زائدا على من قبلك . وأراد بذلك أن يجعل الكعبة بيت نار ، فلما وقف عليه علماء زمانهم عرفوا الخليفة حاله ، وصرفوه عن ذلك الرأى »(١)

ويضيف البغدادى فى الفرق بين الفرق إلى هذه الرواية أن ذلك كان من جملة أسباب نكبة البرامكة . قال : « ولم يمكنهم (أى المجوس) إظهار عبادة النيران فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين ينبغى أن تجمر المساجد كلها ، وأن تكون فى كل مسجد مجمرة يوضع عليها الند والعود فى كل حال . وكانت البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً ، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة »(٢) .

(١) التبصير فى الدين للاسفراينى ص ٨٥ .
(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٣٣ .

أما المشركون فكانوا فرقاً كثيرة ، تبعا لموقفهم من الخالق ، ومن النبوة ، ومن البعث . وهذه الأركان الثلاثة هى أساس الدين الصحيح السماوى . وقد جاء ذكر هذه الطوائف المختلفة فى القرآن ، حيث حكى الله مقالتهم ، وجادلهم ، ورد عليهم .

فالطائفة الأولى من المشركين ، هم المغرقون فى الكفر ، الذين أنكروا وجود الخالق ، وأنكروا البعث بعد الموت والمعاد فى حياة ثانية ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفنى . ومقالة هؤلاء تشبه مايذهب إليه الماديون فى العصر الحديث من إنكار الخالق والقول بالطبيعة فقط . ففى سورة الجاثية : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » [الجاثية ـ ٢٤] ولقولهم بالدهر إنه هو الذى يهلكهم سموا من أجل ذلك بالدهرية . وفى سورة الأنعام: « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » [الأنعام ـ ٢٩] ويرد الله عليهم بعد ذلك قائلا : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » [الأنعام ٣٢] . وقد كان انصراف العرب عن الدنيا وإقبالهم على الآخرة العلة فى نهضتهم ورقيهم

وقوتهم وانتصارهم على غيرهم من الأمم ، وقد اتخذوا هذا المثل الأعلى من الإسلام ، ولا يزالون على هديه حتى اليوم . ولم يخضع العرب للمستعمرين إلا حين أقبلوا على الدنيا ونسوا الآخرة .

والطائفة الثانية من المشركين أقرت بالخالق ولكنها أنكرت البعث ؛ والمعاد أصل جوهرى من أصول الدين . وقد جادلهم القرآن فى أكثر من سورة وأكثر من آية من القرآن . انظر مثلا إلى قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » [يس ٧٧ – ٨٣] .

والطائفة الثالثة أقرت بالخالق ، وحدوث العالم ، والبعث ، ولكنها أنكرت الرسل وعبدت الأصنام التى يقدمون إليها القرابين ويحجون إليها ، وينحرون لها ، وهم دهماء العرب الذين حكى الله قولهم فى هذه الآية : « ألا لله الدين الخالص

والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار » [الزمر - ٣] .

وكان العرب قد اتخذوا من الكعبة موئلا للأصنام وزينوا جدرانها بالصور ، فلما دخل النبي عليه السلام ، مكة يوم الفتح ، ودخل البيت فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ومنهم إبراهيم عليه السلام مصورا فى يده الأزلام يستقسم بها،قال : « قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ماشأن إبراهيم والأزلام ؟ (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين) . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست »[1].

وعن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته فطاف حولها ، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) . فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع

---

(١) السيرة لابن هشام حـ ٤ ص ٥٥

لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع »[1] .

لقد كان فضل الإسلام أنه حطم الأصنام التى عبدها العرب ، فرفعهم من ذلة الخضوع لمعبودات مصنوعة إلى عزة الإيمان بالخالق الواحد القهار .

ومنذ ذلك الحين اكتسبت القومية العربية قوتها الجارفة . كانت القومية العربية قبل الإسلام متدينة ، ولكنها تهبط بتدينها إلى حضيض الوثنية، واتخاذ الأصنام أو الأوثان معبودات من دون الله ، تقربهم إلى الله زلفى فيما يزعمون . ثم تخلصت بعد الإسلام من هذه الأوهام ومن هذه الأصنام. ولا يزال الناس من قديم الزمان يضعفون فيتخذون من أهوائهم أصناما يعبدونها من دون الله . منهم من يعبد المال .

ومنهم من يعبد المرأة متبعا شهوته وهواه ، ومنهم من يعبد أصحاب القوة والسلطان .

فإذا كان ملاحدة هذا الزمان قد كفروا بالله وبالأديان فقد تعلقوا بالأدنى وعبدوا الماديات من شتى الأصناف ، من طعام

---

(١) السيرة لابن هشام ح ٤ ص ٥٩

وملبس وزينة ، او مال وذهب ، أو عبدوا غيرهم من الناس ذوى السلطان . وهذا لعمرى هو شر دين يتخذه الإنسان .

الخلاصة كان العرب فى الجاهلية أصحاب دين ، ولكنهم مالوا عن الدين القويم .

وقد أرسل الله فى أوقات مختلفة رسلا يبلغون رسالته إلى الناس ويدعونهم إلى الصراط المستقيم . فالإسلام حلقة أخيرة فى سلسلة الأديان التى نزلت على أقوام من قبل ، منذ عهد نوح عليه السلام ، كما قال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما » النساء [١٦٣ - ١٦٥]

وقال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم

إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب »
[الشورى - ١٣]

وقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة ، وهى أن الدين واحد ، فى آيات أخرى كثيرة ، ولذلك طلب من المسلمين ، وهم المؤمنون على الحقيقة ، أن يؤمنوا بالقرآن وبمحمد ، وأن يؤمنوا كذلك بالكتب التى أنزلت من قبل على لسان الرسل . قال تعالى فى أول سورة البقرة : « ألم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »
البقرة [١ - ٥]

وفى هذه الآيات الخمس جماع أصول الدين : إيمان بالكتاب وما يتبع ذلك من تصديق للرسول الذى جاء به ، وإيمان بالغيب أى الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، أى الصلة بين الإنسان وبين الله يستعين به ويشكره على نعمه ويعتمد عليه ، وصلة الإنسان بأخيه تلك الصلة التى تعد أعظم رابطة اجتماعية ، ثم تصديق بالأديان السابقة وإيمان بالآخرة والبعث والحساب والعقاب .

ويقول جل شأنه فى سورة النساء : « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » . [النساء ١٣٦]

ويذهب بعض المفسرين فى قوله تعالى : « وإن هذه أمتكم أمةواحدة وأنا ربكم فاتقون »أى ملتكم ملة واحدة ، أى متحدة فى العقائد وأصول الشرائع ، أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد فى العبادة [١] . قال الأستاذ مصطفى عبد الرازق (شيخ الأزهر السابق) : « وقد بين القرآن هذا الدين الواحد الحق الذى لا يتغير بتغير الأنبياء فى الآية الثالثة عشرة من سورة الشورى (شرع لكم من الدين ... الخ) ، والتى يقول البيضاوى فى تفسيرها : أى شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء عليهم السلام من أرباب الشرع ... » .

هذا الدين الواحد هو المعبر عنه فى آيات من القرآن بالإيمان وعن أهله بالمؤمنين والذين آمنوا » [٢] .

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الدين والوحى والإسلام ص ٣١

(٢) المرجع السابق ص ٣٣

وقد فرق الله فى القرآن بين الإيمان والإسلام ، فالإيمان هو التصديق بالقلب ، والإسلام هو عمل الجوارح الظاهر . ففى سورة الحجرات : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » [الحجرات ٤٩] . فالمهم فى الدين الإيمان الصادق ، والعمل الذى يتبع الإيمان وينبع من العقيدة ، سواء أكان الشخص يهوديا أو نصرانيا أو مسلما أو صابئا . ولم يتعصب الإسلام للعرب لأنهم عرب ، لأن الإسلام دين الإنسانية يخاطب الناس كافة ، وقد وصف القرآن العرب بأقبح الصفات حين نافقوا ، وامتدح من آمن منهم ، لأن النفاق شر من الكفر . قال سبحانه : « الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله ... » [التوبة ٩٧ — ٩٩] .

وقد تعايش النصارى مع المسلمين ، مع بقائهم على نصرانيتهم ، واحترم الإسلام المسيحية وقرر ما بين المسلمين والمسيحيين من مودة ، وحكى القرآن حالهم فقال : « ... ولتجدن أقربهم مودة

للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » . قيل نزلت هذه الآية فى وفد الأحباش الذين جاءوا إلى النبى . على أن الإسلام لا يفضل عربيا على أعجمى إلا بالتقوى ، وهو إلى ذلك يسوى بين الناس فى الإنسانية ، ويفاضل بينهم فى العمل الصالح ، والإيمان الصحيح .

وقد كانت فى العرب خصال حميدة وأخرى ذميمة ، حتى جاء الإسلام فهذب تلك الخصال المذمومة وعلى رأسها العصبية الهوجاء ، والمبادرة بالعدوان . ولذلك كان الإسلام فاصلا للعرب بين عهدين : الجاهلية والإسلام . وقد ظل قوم من العرب حتى بعد الإسلام على أخلاق الجاهلية ، كما يتضح من أمر خالد بن الوليد حين بعثه الرسول عليه السلام حين افتتح مكة داعيا ولم يبعثه مقاتلا ، وكان مع خالد قبائل من العرب ، فوطئوا بنى جذيمة بن عامر ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا . فقال رجل يسمى جحدم من بنى جذيمة : ويلكم يا بنى جذيمة ؟ إنه خالد والله ! ما بعد وضع السلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار

إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبداً . فأخذه رجال من قومه فقالوا : يا جحدم ، أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس . فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه . ووضع القوم السلاح لقول خالد . فلما وضعوا السلاح ، أمر بهم خالد فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف ، فقتل من قتل منهم . فلما انتهى الخبر إلى رسول الله رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد . ثم دعا رسول الله على بن أبى طالب ، فقال : يا على اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ... » (١) .

* * *

ويتضح مما سبق أن الدين الذى يعد من جملة أصول القومية العربية هو الديانة السماوية أيا كانت هذه الديانة ، ما دامت تأمر بالتقوى وتحث على الصلاة والزكاة ، ويعتقد أصحابها بوجود الخالق ، وصدق الرسل وما أنزل عليهم من كتب ، وبالبعث فى اليوم الآخر . وعلى هذا الأساس عاشت القومية العربية منذ الإسلام حتى اليوم فى سلام بين أصحاب الأديان والمؤمنين ،

---

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٧١ — ٧٣

لم تقم بينهم فتن ، ولم تظهر اضطهادات دامية مثل تلك التى نشبت فى أوربا بين الكاثوليك والبروتستانت وأفضت إلى مذابح دامية .

ذلك أن الإسلام من السلام ، إنه سلام بين العبد وبين نفسه ، وبينه وبين إخوانه الذين يعيشون معه فى المجتمع . فلا غرابة أن تكون دعوة القومية العربية فى الوقت الحاضر هى دعوة إلى السلام فى عصر ارتفعت فيه صيحة أبواق الحرب ، ولا تزال الدول واقفة على شفا هاوية من الهلاك المدمر الذى يوشك أن يقضى على البشرية جمعاء .

وكما اتسعت القومية العربية فى الجاهلية لضروب مختلفة من الأديان كاليهودية والصابئة والنصرانية وعباد الأصنام من المشركين ، كذلك اتسعت بعد الإسلام لجميع الأديان السماوية ما عدا الشرك بالله . فكان اليهود والنصارى ينعمون بحرية واسعة فى ظل الدول الإسلامية ، ويستظلون جميعا براية القومية العربية ، ويتخذون من لغة الضاد لسانهم الذى يعبرون به عن ذات أنفسهم ، ويؤلف به مفكروهم الكتب المختلفة فى شتى العلوم والفنون .

وقد ارتفع ذكر الأطباء والفلاسفة والمترجمين من النصارى بوجه خاص ، وقربهم الخلفاء وعاشوا فى بلاطهم . واستدعى أبو جعفر المنصور «جورجيس بن جبريل» حين مرض المرض الشديد وعجز الأطباء عن علاجه ، وكان جورجيس رئيس أطباء جنديسابور . وكان علم الطب يكاد أن يكون وقفا على النصارى ، ولا يثق المسلمون إلا بهم ، كما روى الجاحظ فى كتاب البخلاء حيث تحدث عن الطبيب أسد بن جانى الذى أكسد ، فقال له قائل : «السنة وبيئة ، والأمراض فاشية ، وأنت عالم ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تؤتى فى هذا الكساد ؟ قال : أما واحدة فإنى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون فى الطب . واسمى أسد وكان ينبغى أن يكون اسمى صليبا ، ومراسل ، ويوحنا ، وبيرا ، وكنيتى أبو الحارث وكان ينبغى أن تكون أبا عيسى ، وأبا زكريا ، وأبا إبراهيم . وعلى رداء قطن أبيض ، وكان ينبغى أن يكون على رداء حرير أسود ؛ ولفظى لفظ عربى ، وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور » .

وظلت جميع المذاهب غير الإسلامية تمارس شعائرها فى حرية فى ظل العروبة ؛ لأنهم عرب قبل كل شىء ، وظل أتباع هذه النحل يزاولون نشاطهم الاقتصادى والثقافى والسياسى على قدم المساواة مع المسلمين العرب . وهم جميعا مؤمنون كما وصفهم القرآن ، أى يؤمنون بالله ورسله وملائكته واليوم الآخر .

ويمكن أن نقول إن الأصول الدينية المشتركة فى تكوين القومية العربية هى التسامح والتقوى والتمسك بأهداب الفضائل وعلى رأسها البر بالفقراء ، والعطف على المساكين ، والعفو عند المقدرة . نجد هذه الخصال عند جميع العرب مسلمين كانوا أم مسيحين أم يهودا . وهذه الخصال هى الأساس الذى يقوم عليه بنيان المجتمع السليم . ولذلك فشلت معظم المحاولات التى حاولت إخراج العرب عن دينهم ودفعهم إلى الإلحاد والزندقة . وهذه الحركات ليست جديدة على العرب ، فقد ظهرت خلال تاريخهم الطويل موجات من الإلحاد عارضها الحكام ولم يتقبلها الشعب ، كما ظهرت مذاهب تدعو إلى نحل جديدة كالمزدكية وهى دعوة إلى الإباحية . ولكن القومية العربية وقفت فى سبيلها لما فى انتشار الإباحية من مجافاة روح الدين وجوهر الشريعة ، وما تؤدى إليه من انحلال المجتمع وفساد العمران . ولذلك كان

التمسك بالدين هو الحصن الذى حمى القومية العربية من الانحلال فى القديم ، وهو الصخرة التى تتحطم عليها الدعوات الشاذة المادية فى العصر الحاضر .

القومية العربية تقوم على التقوى ، والتقوى جوهر الدين . كما قال تعالى فى سورة الحجرات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

الفن

إذا كانت اللغة أول عوامل القومية العربية ، وكان الدين ركنا من أركانها ، فهناك عامل له أعظم الأثر فى تماسك العرب وجمع رايتهم وضم شملهم ، لم يفطن له الباحثون فى أمر القومية العربية ، ذلك هو الفن .

وللعرب فنهم الذى به يتميزون حتى أصبح عنواناً عليهم وطابعاً يميزهم ، حتى سماه الأوربيون « الأرابيسك » إذ لم يجدوا وصفا ينطبق عليه سوى أن يأخذوه من لفظة العرب .

ولكن الغريب فى الأمر أن معظم الباحثين من الفرنجة فى هذه الفنون يصفونها بالإسلامية ، ولا يقولون العربية . ذلك أن العنصر المميز لهذه الفنون هو الإسلام الذى صبغها بصبغة لا يمكن أن تنكر . فلم يكن للعرب فى الجاهلية فن مذكور ، حتى إذا جاء الإسلام ظهرت ألوان من الفنون فى شتى الميادين ، وأصبحت له شخصية متميزة لا يمكن إنكارها . حقاً اقتبس الفن الإسلامى من الفنون القديمة ، من الفرس تارة ومن البيزنطيين تارة أخرى ، ولكنه هضم هذه الفنون وتمثلها ، ثم طبعها بطابع خاص ووجهها وجهة فريدة . وامتد هذا الطابع

العام من الأندلس فى أقصى الغرب إلى الصين فى أقصى الشرق ، وهو هو فن واحد له سمة واحدة لا تخطئها العين بالرغم من امتياز كل إقليم باتجاهاته الخاصة به ، ولونه المميز له .

يقول الأستاذ «جورج مرسيه» صاحب كتاب «الفن الإسلامى» : تصور أنك تباشر تجربة معينة ، بأن تنفق من وقتك ساعة تقلب النظر فى مجموعة من الفوتوغرافية تمثل آثارا فنية مختلفة . ترى تماثيل اليونان ثم نقوش مقابر قدماء المصريين ، ثم السواتر اليابانية المنقوشة . وبينا أنت تقلب هذه الصور إذا بعينك تقع على التوالى على صورة إفريز من الجص المنحوت فى إحدى قاعات قصر الحمراء ، ثم على صفحة من القرآن كتبت فى مصر ، ثم على زخرفة محفورة على إناء من النحاس مصنوع فى إيران . وبالرغم من قلة ثقافتك الفنية فإنك تتحقق على الفور أن هذه الصور الثلاث الأخيرة تنتمى إلى الفن الإسلامى»[١]

إنه فن عربى ، كما أنه فن إسلامى ؛ لأن العروبة والإسلام قد اندمج بعضهما فى بعضهما الآخر بحيث يصعب الفصل بينهما . ومن أجل ذلك كان الإسلام عاملا لا يمكن إغفاله من حساب القومية العربية .

(١) Georges Marçais, L'Art de L'Islam, p. 5.

والفن لغة تتحدث بالخطوط والألوان والأصوات، ولغة الكلام لغة تعتمد على الألفاظ وما تدل عليه من معان. إلا أن الفن لغة تخاطب القلب والوجدان، ولغة الكلام تخاطب العقول والأفهام.

وقبل أن نمضى فى الحديث عن الفن كعامل من عوامل القومية العربية نود أن نرد على اعتراض قد يوجه إلينا ويقول فيه صاحبه: إن الفن مظهر للقومية العربية وثمرة لها وليس أصلا من أصولها أو عاملا من عوامل تكوينها. ونقول فى الجواب على هذا الاعتراض: إن الفن كما يكون عاملا فى تكوين القومية فهو مظهر من مظاهرها، كاللغة والدين سواء بسواء، فكلاهما عامل فى تكوين القومية وفى الوقت نفسه مظهر لها. وقد فطنت الدول الحديثة إلى ما للفنون من أثر كبير فى تكوين القومية وتوحيد أفراد الأمة فعملت على نشرها وتوجيهها لخدمة القومية. وكانت الفنون قبل ذلك تؤدى هذا الغرض بغير قصد وتدبير؛ لأنها نتيجة تفاعل أفراد المجتمع وظهور الموهوبين من رجال الفن، شعراء أو نحاتين أو مصورين، يعبرون عن عواطف الأمة وينطقون بلسانها، فتكون الآثار التى يبتدعونها ثمرة حياة هذا المجتمع، كما تكون عاملا لاجتماع

الأفراد حول هذه الآثار الفنية التى تصبح سببا فى توحيدهم، واجتماع كلمتهم، وتماسك قوميتهم . سئل أحدهم يوماً لم كان المتنبى أشعر الشعراء ؟ فأجاب : لأنه يكاد يحكى خواطر الناس . فالفنان العظيم، هو الناطق بلسان الأمة، المعبر عن روحها فى تمثال أو قصيدة أو لحن أو تمثيلية، وغير ذلك .

كان الفن العربى قبل الإسلام، أى فن العرب فى الجاهلية، الذى به امتازوا امتيازا على غيرهم من الأمم، هو الشعر الذى كانوا يعلقون الجيد منه على أستار الكعبة، فكانت منه المعلقات المشهورة لامرئ القيس والنابغة وغيرهما، وكانوا يتناشدونه فى الأسواق وفى المحافل العامة، ويتغنون به، ويحفظونه فى صدورهم، ويروونه فى مجالسهم .

وقد أشرنا إلى طرف من طبيعة الشعر العربى عند الكلام عن اللغة، ونتحدث الآن عن جانب آخر يتصل بالفن . والنظرية التى نذهب إليها، وسندلل عليها بالبرهان هى أن سائر الفنون العربية، أو الإسلامية -إن شئت- مما نشأ فيما بعد، كالبناء والنحت والحفر والخط والتصوير والموسيقى إنما نشأت من طبيعة الشعر العربى الفنية، وتفرعت عن هذه الطبيعة .

والأصل فى الشعر العربى الرجز، الذى خرج من حداء

الإبل ، ومن مشيتها فى الصحراء ، وغناء العربى وهو يسوقها بإيقاع يتفق مع جو الصحراء ، ومع خطوة الإبل الهادئة المنتظمة الإيقاع . فكان من ذلك الرجز ، وكان من ذلك البيت من الشعر الذى يتركب من شطرتين ، الأولى تساوى الثانية وتماثلها . وقوام الشعر العربى على البيت ، فهو وحدة القصيدة ، وهذه الوحدة متماثلة ذات يمين ويسار ، ثم تتكرر على الوزن نفسه على طول القصيدة ومهما تبلغ أبياتها . جمل وصحراء هما معظم ما يؤلف حياة العربى ، ومن حركة الجمل المنتظمة السائرة على نمط واحد ، نشأ الشعر العربى القائم على الوحدة المنتظمة التى تتكرر . فإذا حفظت هذا المبدأ اليسير فى أصل الشعر العربى ، فما عليك إلا أن تطبقه على سائر الفنون الإسلامية التى ظهرت بعد ذلك . فالزخرفة العربية التى نراها فى الخط ، وفى جدران المساجد ، وفى المحاريب وعلى ظاهر الأبواب ، وعلى الأبسطة والسجاجيد ، وعلى الأوانى والأباريق ، كلها تقوم على وحدة منتظمة ، سواء أكانت هندسية مجردة ، أم تعبر عن أوراق ورسوم حيوانات ، وتتكرر هذه الوحدة مرة ومرات فى تماثل .

وهذا هو « الأرابيسك » ، أو الطراز العربى ، المتميز عن سائر

أنواع الفنون الأخرى، والذى لا يمكن أن تخطئه العين حتى لو لم يكن المشاهد له صاحب ثقافة فنية .

هذه الروح العربية ظلت سارية بعد الإسلام . هذا الإطار العام الذى يسمى «بالأرابيسك» أخذ يمتلىء بموضوعات إسلامية فى معظمها . وقد يبدو لأول وهلة أن الفنون التى ظهرت بعد الإسلام ، وفى ظل الدول الإسلامية ، انقسمت قسمين : قسم يتعلق بالدين كالمسجد وما يتصل به ، وترتيل القرآن بألحان ، وكتابته بخط جميل وتزيين صحائفه بالنقوش ، ومثل القصائد والتواشيح الدينية من ابتهالات ومدائح الرسول ، إلى غير ذلك . وقسم يتعلق بالدنيا مثل بناء القصور وزخرفتها ، والحمامات ، والحدائق ، وشعر الغزل والوصف والهجاء وغير ذلك من فنون الشعر ، ونسج الأقمشة وتلوينها ، وصناعة السجاجيد ، وصناعة الأوانى من النحاس أو الزجاج إلى غير ذلك من الشئون الدنيوية . ولكن النظرة الأعمق تدل على أن الروح الدينية الإسلامية تغلغلت فى شئون الدين والدنيا على حد سواء فتأثرت الفنون التى نقول عنها إنها دنيوية بالإسلام .

يقول «جورج مرسيه» بعد ذكر المؤثرات المختلفة فى الفن

الإسلامى ، من مؤثرات جغرافية وجوية وصحراوية وتاريخية ، ما نصه : « ومع ذلك فإن أعظم ما يربط بين الأقاليم المختلفة فى الفن الإسلامى هو الإسلام نفسه . فالعامل الدينى أعظم العوامل أثراً وأكثرها دواماً . فالذى جعل من اللغة العربية بالرغم من بعد المسافة بين الأقاليم واختلاف شعوبها لغة مشتركة ، تعلم فى المدارس ، ويكتبها جميع المثقفين من الهند إلى مراكش ، هو أنها لغة مقدسة ، لغة الوحى المنزل فى القرآن الكريم . والذى يخلع على البناء الإسلامى هذا « الطابع العائلى » ، هو أن جميع المسلمين يسلكون فى حياتهم مسلكا يفرضه عليهم الإسلام . والذى يطبع هذا الشىء المغربى بطابع شرقى هو أنه ينسج على منوال المدن المقدسة عند العرب . فإذا أضفت إلى ذلك ما كان يجرى بين المسلمين شرقا وغربا من اتصالات تجارية ، إلى جانب الحج المفروض على كل مسلم أن يؤديه إذا استطاع ولو مرة فى حياته ، رأيت كيف توحدت أجزاء العالم الإسلامى حتى البعيدة منها » (١) .

لقد أثر الإسلام فى الفنون العربية تأثيرا كبيرا ، فالحياة

Marçais, L'Art de l'Islam, p. 9. (١)

الشرقية قضت بحجاب المرأة، وألا تبدى زينتها إلا لزوجها أو لأهلها الأقربين، ومن أجل ذلك قام نظام البناء على حجب المرأة داخله، فنشأت المشربيات، والأفنية الداخلية، أى اتجه بناء الدور إلى سعتها من الداخل حتى تتنفس فيها المرأة، وإلى إحاطتها بأسوار عالية، على عكس البناء الحديث المشرف على الشوارع والمطل على الميادين. وظهرت ألوان الملابس التى تحجب المرأة، والخمر المضروبة على وجهها. وكان من جراء مكث المرأة فى المنزل أن ظهرت ضروب من الفنون التى تزين داخل الدار وتخلع عليها بهجة ورواء، من نقوش وزخرفة، واختص الفن العربى المتأثر بالإسلام بالمشربيات بوجه خاص.

ولما كان القرآن أساس الإسلام، فقد اتجهت العناية إلى تجميل خطه، وتزيين المصاحف بالزخرفة العربية وتذهيب حواشيها، فكان الخط العربى فناً من أهم الفنون التى نبعت من الإسلام.

وإذ كان المسجد هو مكان عبادة المسلمين الذى يؤدون فيه الصلوات الخمس فضلا عن صلاة الجمعة والعيدين، وكان المسجد إلى جانب انه مكان عبادة فهو موضع وعظ وتعليم، ينفق فيه

المسلمون وقتا كبيراً ، فقد تأنق المسلمون فى تزيينه ، من نقوش قرآنية داخل القبة ، وعلى طول جدرانه ، ومن نحت المحراب والمنبر بالطراز العربى ، ومن فرش أرضه بالأبسطة والسجاجيد، هذا فضلا عن نظام المئذنة التى تعدد طرازها على اختلاف العصور .

حقا اعتمد الفن العربى على الفنون السابقة وبخاصة الساسانى فى إيران ، والبيزنطى فى شمال الشام ، والقبطى فى مصر ، ولم يزل الفن الإيرانى محتفظا بجوهره حتى بعد الإسلام ، من الاعتماد على التوريق والتصوير ، ولم يزل الفن البيزنطى والقبطى حافظين لطابعهما ، ولكن هذه الفنون الثلاثة ، وكذلك الصينى والهندى تأثرت جميعها بالإسلام ، وبالروح العربية .

وسنقصر الحديث على الجانب العربى الإسلامى فقط ؛ لأنه هو الذى يهمنا فى تتبع أصول القومية العربية .

ذكرنا من قبل عنصراً من عناصر هذا الفن ، هو الوحدة المتكررة التى هى أساس البيت فى الشعر ، وأن تكرار البيت هو الذى يؤلف القصيدة .

ونذكر الآن عنصراً آخر من عناصر الفن العربى ، هو الزينة ، وهو ما يمكن أن يسمى باصطلاح آخر وهو «الحلية» .

ولكن لفظ الزينة هو المستعمل فى القرآن .

الزينة والوحدة المتكررة فى تماثل هما العنصران الرئيسيان فى الفن العربى .

يضاف إليهما أن الفن كان يخدم الأخلاق ، ولم يكن فنا لذاته ، فهو فن خاضع للمجتمع وظروفه .

أما الزينة فهى حلية تضاف إلى الأشياء تجملها . وبعد ، فالزينة معنى شخصى يفهم بالخيال والذوق ، وينعدم إذا لم يحس به المرء .

وهناك فنون تعتمد فى جمالها على التأليف الباطنى للأثر الفنى ، وأخرى تضيف إلى هذا التأليف زينة خارجية تفرض على الأثر الفنى فرضا ، أو تدرك – إلى جانب التأليف الفنى المترابط فى تناسق – معنى جديدا هو الزينة . وكثير من الشعوب فطنت إلى فكرة الزينة ، واتخذت من عناصر البيئة التى تعيش فيها ما يصلح لزينتها . فهناك أقوام فى أواسط أفريقيا يتخذون من أوراق الشجر ، ومن الخرز ، زينة يحلون بها أجسامهم . ويعتمد اليابانيون على تناسق الألوان وتنضيدها ، وعلى الزهور وتعدد ألوانها . وكذلك الحال فى أندونيسيا ، وفى كثير من بلاد الشرق الأقصى حيث تجود الطبيعة بالزرع .

ولكن بلاد العرب صحراء، ليس فيها إلا رمال وصخر وسماء. وسماؤها صافية، تلمع فيها النجوم عند الليل، ويتألق بريقها، وتؤلف فى قبة السماء ضربا من الزينة، هى التى عبر عنها القرآن بقوله :

«إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب»، فقد أدرك العربى لطول تأمله فى السماء هذا المعنى الذى يضاف إلى حقيقة وجود النجوم والكواكب، وهو أنها زينة، بتألقها، وتناسقها، وتناضدها. وانعكس هذا المعنى على حياتهم الفنية، فطلبوا الزينة التى تشبه تألق النجوم، وشبهوا الشىء الجميل بأنه متألق، وأنه يتدلى من الثريا كما تتدلى المصابيح، وأنه يلمع كما يلمع الضوء فى الظلام. وشبهوا أصحاب السلطان والنابهين منهم بالشمس وبالكواكب وبالنجوم. قال النابغة يمدح النعمان :

كأنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

والزينة التى نجدها فى الشمس والكواكب والنجوم تتألف من وحدات منفردة، كل منها يتألق وحده، ويمتاز بجمال مطلق مستقل عن غيره، ويزداد الجمال حين تضاف هذه الفرائد وتنسق. ومن هنا نستطيع أن نفهم سر العرب حين اهتموا باللفظ المفرد فى ذاته، وشبهوا اللفظ بالجوهرة الفريدة، ثم شبهوا اجتماع الألفاظ بالعقد الذى ينضد الجواهر.

وكما انعكست فكرة الزينة على النثر والشعر ، فكان أروع الكلام ما كان منسقا منضدا ، وكان أبدع الشعر ما تفردت ألفاظه، وتخيرها قائلها كما يختار الصائغ الجواهر الثمينة الخالصة من كل شوب ، كذلك انعكست فكرة الزينة التى تقوم على التألق ، والتفرد ، والنضد ، والتنسيق فى كل فن وفى كل صناعة، تجدها فى الخط حين يتأنق الخطاط فى تجويد كل حرف كأنه صائغ لا ناسخ ، ويزيد فى زينة الكتابة بالتذهيب والوشى .

ولعلك تفهم السر فى تمسك العرب اليوم بالخط الموروث منذ القديم ، لا لأن القرآن قد كتب به ؛ ولكن لأن فى الخط العربى جمالا لا يوجد فى أى خط فى لغة أخرى ، وهم يعدون هذا الخط فنهم الذى يعتزون به ، والذى يزين مصاحفهم ، ومساجدهم ، ودورهم ، وحليهم ، وآنيتهم ، وبالجملة كل شىء . فالعربى لاعتزازه بالكلام المبنى على الحكمة والمعبر عن المثل السائر ، ينقش الآية من القرآن ، أو البيت من الشعر ، أو الحكمة من الأدب ، فى داره ، وفى نسيجه الذى يلبسه ، وفى آنيته التى يأكل فيها ، حتى تكون هذه الحكم ماثلة أمامه فى كل حين يتخذها له نبراساً يهتدى به فى سلوكه . وقد تفرد كل إقليم عربى بشعار من الكلام يسود فى زينته ، ففى الأندلس تجد هذا

الشعار : « لاغالب إلا الله » الوحدة التى تتكرر فى زخرفة قصورهم ، وتراه باقيا بارزا فى قصر الحمراء حتى اليوم . وكان العرب ينقشون على نقودهم: «لا إله إلا الله» . وفى أحد المسارح بالقاهرة تجد هذا البيت من شعر شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وشعار الثورة فى الجمهورية العربية فى الوقت الحاضر ماتختتم به الخطابات والرسائل والبيانات : « والله ولى التوفيق » . والثورة تجرى فى ذلك مع الروح العربى الأصيل ، ومع التراث العربى الموروث حين أحلت « لا إله إلا الله » محل صور الملك السابق فى دور الحكومة .

ولذلك وقفت كل محاولة لكتابة اللغة العربية بالأحرف اللاتينية . وفعل الأتراك ذلك ؛ لأنهم لايحسون بالعروبة ، مع أنهم مسلمون ، وكانوا موئل الخلافة زمنا طويلا ، وفى هذا مايدلك على أن الإسلام ليس مرادفاً للعروبة ، ولكنه فقط من جملة مقوماتها .

وكما تجد هذه الزينة فى الخط ، تجدها فى النحت على الحجر والجص ، والحفر على الخشب ، فيما يسمى بالطراز العربى ،

«الأرابيسك» ، والذى يسميه بعضهم بالتوريق[1]. حقا اعتمد العرب فى هذه الزخرفة على الفن الساسانى ، وعلى الفنون التى كانت سائدة فى الحضارات القديمة من اتخاذ المراوح النخيلية وحدات زخرفية . وسادت هــذه الزخارف التى تعتمد على تفريعات العنب وعناقيده وكيزان الصنوبر والمراوح النخيلية داخل تقسيمات هندسية خلال العصر الأموى والعباسى . ولـكن شيئاً فشيئا اتجه فن الزخرفة ، وبخاصة فى مصر وشمال إفريقية نحو التجرد من الطبيعة ، والتنوع بالأشكال الهندسية فقط ، حتى بلغ الطراز العربى الغاية فى التجريد . والفن التجريدى هو فى اعتبار رجال الفن أسمى مراحله . وهو سائد اليوم على نطاق واسع . ومن أجل ذلك عد «كانط» الفيلسوف الطراز العربى ، أى «الأرابيسك» ، أسمى أنواع الفن . وفى هذا الطراز تتجلى الروح العربية حقاً ؛ لأنها تسمو عن الواقع المحسوس المادى إلى عالم مجرد أعلى من هذا العالم المتغير الذى نعيش فيه . إنه سمو نحو المطلق الذى ينطبق على كل زمان ، ويرضى أذواق جميع الناس ، ولا يتحيز لإقليم أو يتعصب لبلد . ولم يكن الفن العربى بمستطيع

(١) انظر كتاب الفنون الإسلامية لديماند ترجمة أحمد عيسى ص ٩١ وما بعدها .

أن يسود جميع الشعوب الإسلامية من الأندلس حتى الصين لولا اتخاذه هذه الزخرفة الهندسية القائمة على الوحدة المتماثلة المتكررة أساساً له ، ثم تنوعت بعد ذلك الفنون باختلاف الأمم ، فالفن الإسلامى الصينى يختلف عن الإيرانى ، وهذا يختلف عن المغولى ، والمغولى عن المغربى وهكذا .

فهذا درس نتعلمه من الفنون ، وندرك منه أن النزعة إلى التجريد أصل من أصول القومية العربية . وبمثل هذه النزعة أمكن للقومية العربية أن تمتد فى القديم من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى ، بل إلى أبعد من ذلك ، وبمثل هذه النزعة سوف تسترجع بالفن العربى امتداد القومية إلى ما كانت عليه .

وإذْ كانت القومية العربية تدعو إلى الحرية والتسامح والابتعاد عن العصبية ، تجد ذلك فى مزاولة جميع العرب أديانهم على قدم المساواة ، فلا غرابة أن يمتد هذا التسامح ، والذى بلغ حد الفروسية ، إلى الفن . كان كثير من الصناع من النصارى ، الذين كانوا يتولون زخرفة القصور والمساجد وصناعة الآنية والطسوت للمسلمين ، كما كان هناك صناع من المسلمين يصنعون آثاراً فنية للنصارى . من ذلك ما هو محفوظ فى متحف «اللوفر» وينسب

إلى عصر المماليك ، وهى طسوت مزينة بموضوعات بشرية كبيرة الحجم تمثل مناظر الصيد والمصارعة . ومن هذه المجموعة المحفوظة بالمتحف حوض تعميد القديس «لويس» من صناعة محمد بن الزين، تتجلى فيه مدى العناية الفائقة بالتفاصيل الدقيقة فى رسوم صور البشر والحيوان (١) .

يقول «ديماند» : « ومن القطع الهامة لدى المشتغلين بدراسة التحف المعدنية الإسلامية عدد من الأوانى ذات الموضوعات الزخرفية المسيحية، يحمل بعضها أسماء بعض سلاطين بنى أيوب . ويرجع ذلك إلى تسامح سلاطين الأيوبيين ... » (٢) .

ونود أن نضيف إلى مايقرره « ديماند» أن التسامح لم يكن مقصورا على الأيوبيين فقط ، وإنما هو خصلة تمتاز بها القومية العربية ، وزادها الإسلام سماحة ، وأفاض عليها من روحه هداية وسلاماً .

وقد تأثرت أوربا بالطراز العربى عن طريق المدن الإيطالية التى كانت لها صلات وثيقة مع مصر وسوريا ، أى مع الجمهورية العربية المتحدة باصطلاح اليوم ، وكانت البندقية مركز صناعة

(١) الفنون الإسلامية لديماند ، ترجمة أحمد عيسى ، ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٤

التحف المعدنية التى كان يقوم بها صناع سوريون وآخرون من من الأقطار الشرقية[1] إلى أن أخذها عنهم الصناع الوطنيون[2]. ومع ذلك فإن التحف المعدنية التى صنعت بالبندقية ، والتى تشتمل على سلاطين وأباريق وصوان لها من الخصائص الواضحة ما يسهل تمييزها عن غيرها ، إذ اتجه الصناع إلى تجسيم الزخارف وازدحامها ، كما رسموا أشكالا لا تنتهى من الزخارف البنائية والمضفرة ، الأمر الذى لا نجد ما يماثله فى الصناعات الشرقية الصميمة[3]» .

ويتضح من ذلك أن الطراز العربى فى الفن غزا أوربا فى عصر النهضة ، وتأثر به ذوق الغربيين ، ولولا أن أوربا كانت قد أخذت فى طريق التقدم ، وأن العرب كانوا قد أخذوا فى طريق التأخر ، لظل ذلك الأثر مستمراً وتغلبت العروبة على أوربا الجنوبية ، كما حدث فى أسبانيا من قبل .

فلنحتفظ إذن بطابعنا العربى فى الفنون ؛ لأن هذا الطابع أصل من أصول قوميتنا ، وباعث على التمسك بوحدتنا .

(١) وما يسميه المؤلف بالأقطار الشرقية هو ما نسميه نحن بالأقطار العربية .

(٢) يريد بالصناع الوطنيين : البنادقة .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٣ .

ولنحتفظ ـ بوجه خاص ـ بالفن الذى يعد على رأس الفنون العربية والذى كان ـ ولا يزال ـ يمثل قوميتها ويعبر عن روحها ، وهو الشعر .

وقد حدثت محاولات فى عصور مختلفة للخروج بالشعر عن عموده التقليدى ، وظهرت ألوان جديدة مستحدثة نشأت عن تأثيرات اجنبية ، مثل الموشحات الأندلسية . ومع ذلك فإن هذه الموشحات بالرغم من أن مضمونها وأغراضها أندلسية ، فإنها تقع فى الإطار التقليدى للنظم العربى . وبعد ، فليست الموشحات أرقى أنواع الشعر ، وإنما تحقق أغراضاً خاصة فى الغناء .

أما الشعر العربى فأساسه الفخر والحماسة ، والعزة والكرامة ، وشعور العربى بذاته ، وتمسكه بالحرية والعدل . وهذا الشعور القوى بالذات هو الذى يسر للعرب أن يحددوا قوميتهم بإزاء القوميات الأخرى ، كما يسر لهم الاحتفاظ بكيانهم فى أحلك الأوقات وأعصب الظروف .

هذا الفخر يمثله عمرو بن كلثوم فى معلقته التى أنشدها فى الجاهلية أصدق تمثيل :

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخـر له الجبابر ساجدينا

وستكون للقومية العربية الدنيا كما كانت يوم سار أهلها على صراط من التقوى ، وجروا على سنة العدل ، وصدروا عن عزيمة ورأى ، وبذلوا عن سخاء وكرم . ولك أن تتمثل فى ذلك بأبى الطيب المتنبى وهو ينشد سيف الدولة بعد غزو الروم وانتصاره ، وأن تقرأ القصيدة التى مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام الكرائم

الحضارة

اللغة والدين ، والفن ، والأخلاق اجتمعت كلها على تكوين العرب ولم ينفرد واحد منها بصنع قوميتهم . وجماع هذه الأمور كلها هي ما يسمى بالحضارة تارة ، وبالثقافة تارة أخرى . فالقومية العربية عبارة عن قالب حضارى معين يشتمل على عناصر كثيرة يندمج بعضها فى بعض ، ويولد العربى فى مراكش أو الجزائر أو تونس أو ليبيا أو السودان أو مصر أو اليمن والحجاز والكويت وعمان ، أو فى فلسطين والشام والعراق ، فيصب فى هذا القالب صبا ، ويخرج منه منذ أن يولد حتى يستوى رجلا وقد انطبع بطابع العروبة ؛ لأنه اكتسب هذه الحضارة وأصبحت جزءاً من كيانه ، بعد أن تشكل بقالبها ، وتطبع بطابعها .

وقديماً دخلت فى القومية العربية عناصر كثيرة غير عربية ، نشأت فى ظل حضارات أخرى ودمغت بها ، وكان الأجدر أن يؤثروا حضارتهم التى ورثوها على حضارة العرب الدخيلة عليهم ، ولكنهم وزنوا ووازنوا ، وفاضلوا ففضلوا الحضارة العربية ، وآثروا أن يندرجوا فى تيارها ، وأن يلفهم رداء قوميتها .

وممن آثر العرب على الفرس ، وكان يعرف اللسانين ، ونشأ فى أحضان الفرس ، عبد الله بن المقفع الذى يعده العرب على رأس بلغائهم، وأحد الناطقين بلسانهم . روى صاحب العقد الفريد أن جماعة من العرب التقوا فى البصرة بابن المقفع ، فسألهم أى الأمم أعقل ؟ فأجابوه مجاملة : فارس ، فلم يوافقهم لأن الفرس ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيما من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم . أما العرب فقد : « حكموا على غير مثال مُثِّل لها ، ولا آثار أثرت ؛ أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشىء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيكون حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ، ويقبِّح ما شاء فيقبح ؛ أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل أحباء الله فيهم وحباؤهم فى أنفسهم حتى رفع الله لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم ، فقال تعالى : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (١) .

(١) العقد الفريد حـ ٣ ص ٣٢٥.

وقد رأى ابن المقفع فى العرب خصالا هى التى رفعت من شأنهم على سائر الحضارات الأخرى ، أجملها فى خمس هى : الابتداع لا الاتباع ، والجود والسخاء ، وحكمة العقل ، والسمو بالنفس ، وإيثار الله إياهم بالملك .

ذلك أن الحضارة فى نظره ليست مادية بل روحية ؛ ليست مادية تأخذ الحضارة كما فعل ابن خلدون من جانبها الخارجى ، جانب الرفاهية الذى يتجلى فى الفنون والصناعات والبناء والمؤسسات الاجتماعية والعمرانية والنظم الاقتصادية المختلفة ، أو كما يقول بنص عبارته : « والحضارة كما علمت هى التفنن فى الترف واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التى تؤنق من أصنافه ، وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المبانى أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل ، وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة . . . . »[1] ؛ بل روحية تنظر إلى الحضارة من جانبها

---

(١) المقدمة لابن خلدون ص ٢٦١ — وابن خلدون على طرفى نقيض من ابن المقفع ، إذ يطعن العرب وينزع عنهم كل فضيلة ، ويعلى من شأن الأعاجم . ولهذا السبب افتتن المستشرقون بابن خلدون ومجدوه لا لأنه كتب مقدمته فى العمران وعلم الاجتماع ، بل لهذا الطعن فى العروبة .

الداخلى أى الأخلاق والدينى والعقلى ، لا من حيث السلوك الخارجى ، بل من حيث المثل العليا الموجهة لهذا السلوك .

والحضارة العربية ، وهى أساس القومية العربية ، ليست فى حقيقتها مادية فقط أو روحية فقط ، ولكنها تجمع بينهما ، فتجعل أساس الحضارة روحيا ومظهرها ماديا . والقومية العربية تجرى فى ذلك مع ظروفها التاريخية والجغرافية ، إذ كانت أمة وسطا ، توفق بين الشرق والغرب ، بين المادية والروحية ؛ فالقومية العربية فى حضارتها وفقت بين الروحية المتطرفة والمادية المسرفة ؛ لأنها تؤمن بالمثل العليا كما تؤمن برفاهة العيش فى هذه الحياة الدنيا . ويمثل هذا الاتجاه الحضارى الذى يجمع بين النقيضين الحديث الشريف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وإذا رجعنا إلى التاريخ القديم نوعاً ما ، وجدنا أن بعض الحضارات كانت متطرفة فى المادية ، وبعضها الآخر مسرفا فى الروحية ، فالمادية المتطرفة لا تحفل إلا بهذا العالم ولا تؤمن بعالم آخر يلقى فيه الإنسان جزاءه بحسب ما قدمت يداه ، إنهم الدهرية الذين حكى القرآن مقالتهم ، ومن ثم تتشكل حضارتها بانتهاب اللذات الحاضرة والاستمتاع بمباهج الحياة ، كما فعلت

«الأبيقورية» فى اليونان ومذاهب أخرى من أتباع اللذة. وقد تسربت «الأبيقورية» المادية إلى الحضارة الرومانية فصبغتها بهذه الفلسفة حتى ظهرت المسيحية التى كانت رد فعل شديد على الحضارة الرومانية ، فدعت إلى الزهد وإلى طلب السعادة الأخروية فى مملكة السماء ، فكانت المسيحية لذلك مثالا بارزاً على الروحية المتطرفة فى أوربا الغربية خلال العصر الوسيط .

وسارت فى الشرق القديم النزعتان المادية والروحية جنباً إلى جنب ، فحضارة الفرس مادية انعكست على الدولة حتى اشتهر إيوان كسرى بالفخامة والأبهة ، ولم تزل الروح الفارسية تسرى فى دماء أبنائها حتى بعد إسلامهم ؛ ولهذا الإسراف فى المادية لم يتقبل الفرس القومية العربية مع خضوعهم للعرب والإسلام بضعة قرون . أما حضارة الهند فهى مسرفة فى الروحية داعية إلى الزهد وإلى فناء النفس كى تظفر بالحقيقة المطلقة . وهم أهل سلام ترى ذلك فى سياسة غاندى، وسياسة معظم الهنود حتى المسلمين منهم ؛ ولذلك ساد التصوف عندهم ، وكانت معظم النزعات الصوفية نابعة من الهند . والتصوف الفارسى مما تأثر بنزعات الهنود ، غير أن تصوف الفرس ليس أصيلا فيهم أصالة التصوف الهندى . ولم يكن عند العرب تصوف ، ولو أن فيهم

من سلك طريق الزهاد ؛ لأن طريق الصوفية إلى معرفة الله هو القلب والوجدان ، وطريق المعرفة بالغيب عند العرب حتى قبل الإسلام بالعقل والنظر ؛ ولهذا السبب كان التصوف دخيلا على الإسلام ، أجنبياً عن العروبة ، ولم يظهر إلا ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، وحين اشتد ساعد التصوف فيما بعد كان علة فى تأخر الحضارة العربية ؛ لأن التصوف ليس من مقومات العروبة الصحيحة .

ولما ظهر العرب على مسرح السياسة العالمية فى القرن السابع مع ظهور الإسلام ، وفتحوا الفرس وبلغوا السند ، وفتحوا الشام ومصر وشمال إفريقية ، ودانت لهم هذه البلاد جميعا ، وكانت ذات حضارات عريقة متباينة ، تفاعلت العروبة مع هذه الحضارات ، فلم يكد يظهر القرن الثامن حتى تكونت حضارة عربية جديدة لا هى هندية ولا هى فارسية ، ولا هى يونانية أو رومانية ، وإنما هى حضارة عربية . كل ما فى الأمر أنها كانت منعزلة فى داخل الجزيرة العربية فى الجاهلية ، فامتدت أطرافها شرقا وغربا حتى شملت منطقة الشرق الأوسط كله بعد الإسلام .

وتمتاز الحضارة العربية ، وهى فى جملتها أصل القومية العربية ،

بنزعتها إلى الأخذ والعطاء لا إلى العزلة والانفراد ، وهذا ناشىء من اتساع أفق القومية العربية وابتعادها عن العصبية الضيقة ، وميلها إلى التسامح والتحرر والتطور والتوفيق . والحضارات على الجملة هى ثمرة التفاعل بين القوميات ، وانتقالها من مكان إلى مكان . فقد كانت الحضارة اليونانية ثمرة حضارة قدماء المصريين والبابليين ، وانتقلت الحضارة اليونانية إلى الإسكندرية ، وإلى شمال الشام وإلى « جنديسابور » فى فارس ، فلما ظهر العرب تمثلوا هذه الحضارة وأخذوا ما فيها من علوم وفلسفة ، كما أخذوا عن الهند ما عندهم من حكمة وعن الفرس ما عندهم من سياسة ، فكانت الحضارة العربية البوتقة التى صهرت فيها سائر الحضارات القديمة ، فلا هى شرقية ولا هى غربية .

وتستطيع من هذا العرض التاريخى أن تفهم هذا الشعار الجديد للقومية العربية ، من أنها : « لا شرقية ولا غربية » لأن طبيعة وجودها فى هذه البقعة من العالم تجعلها لا يمكن أن تتأثر بالشرق ومذاهبه تأثرا خالصاً ، ولا بالغرب ومبادئه تأثرا مطلقا ؛ إذ هى بطبيعتها تأخذ من هذا ومن ذاك ، وتصب هذه النزعات المتعارضة التى يصعب التقاؤها فى قالب القومية العربية . وهذا

هو الحياد الإيجابى ، الذى تحقق فى القديم ثم ظهر فى العصر الحاضر .

فبالرغم مما اصطنعته العروبة قديما من القوميات المجاورة لها ظلت الروح العربية خالصة لم يتغير أساسها . والقومية العربية تمر اليوم فى مرحلة تشبه تلك التى مرت بها فى القرون الأربعة الأولى من الإسلام ، إنها مرحلة أخذ عن الدول الأخرى لتلحق بركب الحضارة المتقدم حثيثا إلى الأمام . فهى إذ تأخذ بالعلوم والمعارف وبالفنون والصناعات لا تخرج عن قوميتها ، ولكنها تتطور بهذه القومية بحيث تأخذ شكلا جديدا دون أن تنخلع من روحها الأصيلة . وقد قلنا فى استهلال هذا الكتاب إن القومية العربية مثلها مثل أية فكرة من الأفكار لها حياة وموت ، ونمو وازدهار ، وهى الآن فى مرحلة من النمو والتطور لاتزال تنسج « شخصيتها » التى لم تتحدد ملامحها النهائية لأنها فى دور التكوين .

وهذا لاينفى أن « شخصية » القومية العربية موجودة على هيئة معينة فى الوقت الحاضر ، وهذه الشخصية قائمة على الحضارة الراهنة بجميع أطرافها الروحية والمادية ، الباطنة والظاهرة . ويتشابه افراد العرب من المحيط إلى الخليج ، بالرغم من

الاختلافات الفردية التى لابد منها ، نتيجة انطباع الطفل منذ أن يولد بالطابع العربى القومى ، حين ينشأ فى أسرته مع أمه وأبيه وإخوته فيتعلم منهم الكلام باللهجة العربيه ، ويتعلم طريقة السلوك مع إخوانه فى المجتمع من ميل إلى العدوان أو العزلة أو السلام أو التعاون ، كما يتطبع بآداب أخلاقية ومظاهر فى الملبس والمأكل وغير ذلك . ولكل أمة طريقتها فى التعاون والتنافس ، فبعضها ينعزل بالفرد إلى حد الاستقلال به كما هى الحال فى الديمقراطيات ، وبعضها الآخر يدمج الفرد فى الجماعة ويعمل على إفنائه فيها كما هى الحال فى الدول الاشتراكية والشيوعية . ولكن العرب مذ كانوا فى الجاهلية ، وبعد الإسلام جمعوا بين الفردية التى تمنح لكل شخص حريته واستقلاله فى الفكر والرأى والعمل ، وبين التعاون والاشتراكية التى تجعل القبيلة مسئولة بأكملها عن الفرد ، وتجعل الفرد فانياً فى سبيل المجموع . ولعلك تستطيع أن تفهم لم كان نظام الحكم فى الوقت الحاضر هو الديموقراطى التعاونى الاشتراكى ؛ لأنه يتلاءم مع أصول القومية العربية المنحدرة إليها من قديم .

للقومية العربية إذن شخصية ، وهذه الشخصية هى ثمرة

حضارتها ، او ثقافتها[1] ـ إذ أننا نأخذ معنى الثقافة بمعنى الحضارة ـ المنحدرة إليها من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر عبر التاريخ حتى الوقت الحاضر ، والتى يمتصها الطفل من أسرته أولا ، ومن المجتمع الذى يعيش فيه ثانيا ، عن غير قصد ، بحكم وجوده فى أسرة ، وحياته فى مجتمع . والطفل وهو صغير السن لايشعر بهذه المقومات الحضارية من لغة وعواطف ومثل عليا وقيم فى الحياة ، ومن مظاهر سلوكية يؤديها فى اتخاذ زيه وطريقة لعبه وأنواع مأكله وأساليب تناوله الطعام ومعاملته للناس حين يحتك بهم ، ولكنه حين يكبر يشعر بهذا كله ، ويحس أن هذه الضروب من السلوك والعواطف والأفكار تصدر عن « ذاته » ، فتكون ذاته هى المحور الذى تدور عليه المظاهر الحضارية التى يؤديها . والأمة كذلك فى مجموعها وبصرف النظر عن الاختلافات الفردية لها « شعور بذاتها » ،

---

(١) الثقافة Culture والحضارة Civilisation ، وقد هجر كتاب الغرب وبخاصة الأمريكان لفظ الحضارة واستعملوا الثقافة بمعنى واسع وهى مجموع الأفكار والعقائد والمثل العليا والقيم التى تسود فى الأمة ويتجلى أثرها فى آدابها وفنونها وعاداتها ونظمها وقوانينها وأساليب معيشتها بوجه عام — انظر اسماعيل القبانى — محاضرات فى الوحدة الثقافية — ١٩٥٨ — ص٢.

وهو ما يعبر عنه بروح الأمة ، وتدور حول هذا الشعور بالذات الأفكار والقيم والعواطف والمظاهر السلوكية المختلفة التى تؤلف القالب الحضارى . وقد برزت القومية العربية إلى الوجود فى الوقت الحاضر ، أكثر من أى وقت مضى ، إذ أن هذه القومية كانت موجودة على الدوام ولكنها اليوم أشد ظهورا ، بسبب شعور العرب بذاتهم ، هذا الشعور الذى قوى بوجه خاص عقب العدوان عليهم من المستعمرين والصهاينة .

فالقومية العربية موجودة تنتقل من جيل إلى آخر بالتعليم والتعلم ، غير أن العرب حين كانوا متخلفين عن التقدم ، ولم يكن التعليم عندهم راقيا منظما فى مدارس ، استمرت عملية التعليم والتعلم عن طريق المحاكاة والتلقين فى الأسرة والمجتمع ، دون أن يقصد الناس إلى هذا التعليم . فكان الناشىء من أبناء العروبة يكتسب لغته ولهجته ودينه ومثله العليا وأساليب سلوكه فى الحياة بالتقليد ، وبحكم انطباعه بالقالب الحضارى العربى فى نفسه دون أن يشعر .

أما اليوم ، بعد انتشار التعليم ، وافتتاح المدارس ، وطباعة الكتب والصحف وظهور الإذاعة ، ورقى الدول العربية ،

فقد أصبح اكتسابه لهذه الحضارة بأحوالها المتنوعة خاضعا لتوجيه وتدبير وقصد، نحو القومية العربية.

وكانت المدارس الأجنبية تجد مرتعا خصيبا فى قلب العروبة تصول فيه وتجول وتعمل على هدم القومية العربية، وخلع أبناء العرب من عروبتهم. فهذه مدارس فرنسية وتلك انجليزية، وثالثة أمريكية، ورابعة إيطالية، أو ألمانية، وهكذا، ويلقى العرب بأبنائهم وفلذات أكبادهم إلى هذه المدارس منذ حداثتهم، فينشأون فى «جوها» ويأخذون «روحها»، ويتطبعون بطابعها، وعلى الجملة تُدْمغهم قوالبها الحضارية، فيخرج الشاب بعد تخرجه يتكلم برطانة أعجمية ويأنف أن يتحدث بالعربية، ويسلك فى معيشته طبقا للأسلوب الذى تعلمه وهو أسلوب غريب عن القومية العربية. وهؤلاء هم صفوة المثقفين وخلاصة الأمة وقادة الرأى فيها، فلا غرابة أن ينسج العامة بعد ذلك على منوالهم، وإذا استمر الحال على هذا المنوال انخلعت القومية العربية وزالت، وحلت محلها قوميات أخرى أعجمية. ولهذا السبب بادرت مصر فوضعت حداً لهذا الغزو الثقافى الذى يؤدى فى نهاية الأمر إلى القضاء على القومية. ولست تجد أمة من الأمم فى أوربا أو أمريكا تسمح بافتتاح مدارس أجنبية

فى بلادها ، لأنها حريصة على تنشئة أبنائها على قوميتهم والاحتفاظ بها ، كما أنها حريصة على توحيد أبنائها بتعليمهم جميعاً فى مدارس موحدة ، وفى التطبع بثقافة واحدة .

والقومية العربية باعتبار أنها مظهر حضارى معين تمتاز باحترام الإنسان ؛ لأن الفرد هو فى نهاية الأمر حامل الحضارة المحقق لها المبدع لما فيها من علوم وفنون وصناعات وآداب ، ولذلك كان احترام الفرد وإحاطته بسياج من الضمانات التى تكفل له الأمن والاطمئنان هو السبيل إلى الحضارة بأوسع معانى الكلمة ، وهو الطريق إلى سعتها وامتدادها وانتشارها . وقد زاد الإسلام من هذه النزعة الإنسانية وأقرها وقررها ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم . وقد سادت فى اليونان والروم والفرس فكرة انقسام الناس طبقات ، الخاصة والعامة ، السادة والعبيد ، على أسس سياسية واجتماعية وفلسفية ودينية . وانظر إلى الهند تراهم إلى اليوم يقسمون البشر طبقات أحطها طبقة المنبوذين ، أو الأنجاس . وهذا ميراث لاعتقادات دينية قديمة . أما العرب فلم تميز إنساناً لجنسه أو طبقته أو دينه ، وكانت فى الجاهلية تتعصب للقبيلة فجاء الإسلام ودفعهم إلى التسامى عن

الروح القبلية الضيقة إلى النظرة الإنسانية الواسعة . وقد لام الله تعالى النبي عليه السلام ؛ لأنه انصرف عن رجل أعمى من العامة هو عبد الله بن أم مكتوم جاءه يطلب منه أن يعلمه الإسلام ، وتشاغل النبي عنه بالحديث مع أشراف قريش ، فعاتبه الله قائلا : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى » . ولم تزل هذه سنة العروبة وروحها حتى اليوم ، تقدر المرء لجده واجتهاده وعمله وتقواه وفضله لا لشرف أصله أو نبل محتده . كان المتنبي في القرن الرابع من أبناء الكوفة ، وكان أبوه سقاء ، ولم يمنعه ذلك من ارتفاع المنزلة بما أنعم الله عليه من موهبة الشعر ، وفي ذلك يقول أبو الطيب :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي   وبنفسي فخرت لا بجدودي

وكان من أثر احترام القومية العربية للإنسان أن فتحت صدرها لتزويده بجميع فروع الحضارة ؛ ولذلك عنيت القومية العربية بالتعليم ، وإنشاء المدارس ونشرها وتعميمها . حقا اهتمت سائر الأمم الخالية بالتربية ، ولكنها كانت تقصرها على فئة خاصة هم الكهنة أو الحكام ؛ لأن التعليم يكسب المرء قوة يسيطر بها على غيره من الناس . فلما جاء الإسلام ولم يكن يؤثر طبقة على طبقة ، أو فردا على آخر ، انتشرت الكتاتيب

والمدارس فى جميع أنحاء العالم العربى من اقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، حتى أصبح «العلم للجميع» شعار الحضارة العربية . وكان التعليم موجوداً فى الجاهلية على نطاق ضيق ، وكانت هناك «كتاتيب» فلما جاء الإسلام عهد النبى إلى بعض من يعرفون القراءة والكتابة مثل حسان بن ثابت وعثمان بن عفان بكتابة الوحى . وبث الإسلام الدعوة إلى التعليم ، وسن النبى القدوة حين افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة والقراءة . وانتشر التعليم بعد ظهور الإسلام لحاجة المسلمين إلى حفظ القرآن وتلاوته فى الصلاة المفروضة ، وانتشرت الكتاتيب ودور المدارس انتشاراً كبيراً ، وظهرت ألوان من العلوم ، وألفت كثير من الكتب ، وظهرت صناعة الوراقة وما يتصل بها من صناعة الورق والحبر والنسخ وبيع الكتب . وحرص العرب على اقتناء الكتب ، وتنافس الأمراء والخلفاء فى تزويد مكتباتهم بآلاف المجلدات . وفى القرون الأولى من الإسلام كان العلم يطلب لذاته ، أما التكسب فللناس صناعات أخرى . كان أبو حنيفة بزازا يتجر فى الحرير ، وكان ابن حنبل يبيع ما يغزله، وكلاهما من الفقهاء أصحاب المذاهب ممن يقتدى بهم المسلمون حتى اليوم . ويحكى ابن سينا فى سيرة حياته أن والده

أرسله وهو صبي يتعلم من شخص يبيع البقل ويعرف حساب الهند . ولم يكن حظ المرأة أقل من حظ الرجل فى تلقى العلم ، بل إن « الكتاتيب » كانت تستقبل البنات والصبيان على حد سواء ؛ ولذلك نص الفقهاء على أن المعلم ينبغى أن يأخذ حذره من الصبيان إذا بلغوا سن الرشد . وفى ظل هذه الحضارة المتقدمة ، التى كانت تمنح العلم للجميع ، وكان التعليم فيها مشتركا ، نشأت القومية العربية ، فارتفع شأنها فى العصر الوسيط على حين كانت أوربا تغط فى ظلام الجهل والتأخر . وإنما استطاعت القومية العربية أن تستمر فى هذا التقدم قرونا كثيرة ؛ لأن الأصل الذى تعتمد عليه هو النزعة الإنسانية التى تؤمن بحق كل إنسان كفرد فى الحياة وفى الرقى . واليوم حين تعود القومية إلى نشر التعليم ورفع مستوى أبنائها ترجع فى ذلك إلى أصل من أصولها ولا تستمد ذلك من الغرب .

وأصل آخر من أصول القومية العربية يتصل باحترام الإنسان والاحتفاظ بكرامته هو الحرية ، حرية المرء فى نفسه وفكره وسلوكه إلى أقصى حد من الحرية بشرط ألا يمس الصالح العام ولا يؤذى حرية غيره . وقد سبق العرب فى ظل الإسلام إلى تحرير العبيد وفك الرقاب وإلى تحرير المرأة بعد

أن كانت مجرد متاع . والمرأة العربية مشهورة بالعفة ، وليس ما كان يجرى فى الجاهلية من وأد البنات إلا خشية الرجل من العار الذى يلصق به إذا زلت ابنته ، فلما جاء الإسلام مضى على سنة هذه العفة ، وعمل على صيانتها بتنظيم الزواج والحث عليه وحفظ حقوق المرأة ، وفيما عدا ذلك فالقرآن يخاطب المرأة كما يخاطب الرجل . ويطالب المؤمنين والمؤمنات على حد سواء بأداء ما فرضه الله . وقد نبغ فى العرب كثير من النساء الشاعرات والأديبات ، ولكن مكان المرأة الصحيح ، بالرغم مما قضت به الحضارة الحديثة ، هو البيت ، ترعى زوجها وأولادها . هذا هو مكانها الحق ، واشتغالها فى الأعمال الحرة ، وخروجها إلى ميدان العمل ، وهجرها البيت إلى المصنع ، جدير أن يؤدى إلى ألوان من الانحلال ستظهر آثارها فيما بعد . أما القومية العربية فإن روحها وفلسفتها فيما يختص بالمرأة فهى أن تكون حرة وفى الوقت نفسه مصونة ، أن تكون عاملة إذا اضطرت للعمل مع العفة . فإذا تحررت المرأة من عفتها ومن حيائها فلن تكون امرأة عربية تطبعت بطابع الحضارة العربية ، بل تكون قد انخلعت عن عروبتها وانتسبت إلى حضارة أخرى . وبعد فالعرب يضعون المرأة فى أسمى مكانة

دون أن نجاوز حدها . ومن وصايا على بن أبى طالب لابنه « لا تملكن المرأة من الأمر مايجاوز نفسها ، فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة » .

ذلك أن صون الأعراض أصل من أصول القومية العربية .

كما أن حفظ الجار أصل من أصولها ، لعله هو الذى يعبر عنه الغربيون بالإخاء حين نشبت الثورة الفرنسية، وكان شعارها الحرية والإخاء والمساواة . قامت الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر تطالب بهذه الحقوق الإنسانية ، ولا يزال الغرب يعمل على تحقيقها ، ولما يصل إلى ذلك .

أما العرب فقد نشأوا أحراراً ، أحراراً فى الفكر والعقيدة وأحرارا من الفقر والخوف .

فالتحرر من الفقر كفله الإسلام بنظام الزكاة المفروضة من جهة ، ونظام الصدقة على المساكين وأبناء السبيل من جهة أخرى . واستمر الأغنياء ينفقون بوازع من الضمير إلى أن ابتدع نظام الأوقاف الذى يحبس ريع العقار على الفقراء والمساكين ، واليوم حلت الدولة محل الأغنياء فى توزيع الخدمات الاجتماعية طبقا للنظام الاشتراكى الحديث ، مع أن هذا النظام قديم قدم القومية العربية التى أخذت من الأغنياء لتعطى الفقراء وحلت بذلك مشكلة الفقر التى تحول بين الحضارة والتقدم ،

وتبث الحقد والحسد فى نفوس أبناء المجتمع الواحد مما يفضى إلى التفكك والانحلال .

أما التحرر من الخوف فقد كفلته مثل السلام والعدل واستقلال نظام القضاء . ومن أمثال العرب أن العدل أساس الملك . وقد استطاعت القومية العربية أن تسود العالم فى خلال عدة قرون باتباعها سنة العدل ، فأمن الناس فى ظل العرب بعد خوف ، ورضوا بأن يستظلوا بحكمهم وأن يندرجوا تحت رايتهم . ولم يتزعزع الأمن إلا حين استعان العرب بالجند من الترك أيام العباسيين بعد زمان المعتصم ، فانتشر منذ ذلك الوقت السطو والعدوان والوثوب على الحكام ، وأخذت الحضارة العربية فى الانهيار شيئا فشيئا .

وأصل ثالث من أصول القومية العربية هو الاعتماد على العقل ، كما ذكر ابن المقفع فى قوله إنهم حكموا على غير مثال مُثِّل لها ، ولا آثار أثرت ؛ ولذلك وصفوا بالحكمة ، وهى وضع الشىء فى موضعه . ذلك أن أحوال العالم متغيرة ، وما يصلح لوقت لا يصلح لوقت آخر لاختلاف الظروف والبيئة ، ومن هنا احتاج المرء إلى النظر بعقله لحل المشاكل الجديدة التى تعترضه حتى تسير عجلة العمران ، ولا بأس أن يستفيد من

التجارب ، ولكن لا بد له ان يسلك طريقا يعتمد على الواقع المحسوس ، وأن يتبع منهجا يبتدع فيه أساليب جديدة تتفق مع الظروف الجديدة . ومنذ ظهور مجد العرب بعد الإسلام وهم يواجهون مشكلات عويصة اعترضتهم بعد الفتوحات الواسعة وحكم الولايات المتعددة المختلفة اللهجات والألسن المنوعة الحضارات ، فنقلوا الدواوين ، واعتمدوا على الحساب المأخوذ عن الهند ، وترجموا العلوم المختلفة اللازمة للعمران كالطب والفلك والهندسة والفلسفة ، واختطوا المدن ، وأنشأوا « البيمارستانات » لعلاج المرضى ، وافتتحوا المدارس لتلقى العلم وضبطوا الموازين والمكاييل إلى غير ذلك من المظاهر المادية الضرورية لتقدم الحضارة واستقرارها .

فهذه النزعة العقلية التى بها تمتاز القومية العربية هى التى يسرت لهم نقل العلوم ثم التقدم بها خطوات واسعة إلى الأمام ، مع ابتكار علوم جديدة مثل علم الجبر . وقد كانت تآليف العرب فى العلوم الطبيعية والكيمائية والرياضية والطبية النبراس الذى سارت على هديه أوربا منذ عصر النهضة ، ومراجع أساسية يستخدمها طلبتهم فى الجامعات حتى القرن السابع عشر . وقد جاء تقدم العرب العلمى لاتباعهم منهجا علميا تجريبيا لخصه

ابن سينا فى سبع خطوات سبق بها قواعد «جون ستيوارت مل» فى التجريب . هذا فى الوقت الذى كان يتهم كل من يشتغل بالعلوم والتجارب فى أوربا بالشعوذة والزندقة ، آية ذلك محاكمة « جاليليو » المشهورة فى التاريخ . واشتغال العرب بالعلوم التجريبية دفعهم إلى ابتكار الآلات اللازمة لاستخدامها فى المعامل مثل : البواتق والأنابيق وأنابيب الاختبار ، كما ابتكروا آلات فلكية تستعمل فى المراصد .

وحين استيقظت روح القومية العربية فى العصر الحاضر نبذت النزعات الدخيلة عليها ، وبخاصة التصوف الوافد عليهم من الهند والفرس ، وعادوا إلى نزعتهم الأصيلة ، وهى اتباع العقل وتحكيمه ، فأقبلوا على العلوم الغربية الحديثة ينقلونها ويتمثلونها ويسيرون على المنهج العلمى الذى يعتمد على الواقع والمشاهدات والتجارب . وجدير بمثل هذه القومية التى تجعل العقل أساساً لسلوكها فى الحياة أن تبلغ ما تريد فى أقصر زمان وهى لا شك بالغة مرادها ما دامت تسير على سنة التقوى والعدل والإحسان ، كما قال تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وإنما كان العقل والاعتماد عليه شرطا أساسيا من شروط الحضارة ؛ لأن الحضارة الحقة لا الزائفة الغرض منها تخفيف

عبء الحياة القاسية عن الأفراد والجماعات فى كفاحهم للحصول على المعاش من جهة ، وتكميل الفرد من جهة أخرى ، وهذا الكمال هو الغاية الأخيرة من الحضارة . ويحتاج الإنسان فى كفاحه للظفر بحاجاته، وتحقيق وجوده، إلى السيطرة على الطبيعة واستغلالها ، وإلى التعاون مع الجماعة التى يعيش فيها وتنظيم علاقته بأفرادها . وهو فى حاجة إلى تحكيم العقل للسيطرة على الطبيعة من جهة، وللسيطرة على نفسه وأهوائه حتى ينزل عنها فى سبيل الصالح العام من جهة أخرى . وسيادة المرء على نفسه هو التحضر بمعنى الكلمة ، فتضعف الأمة إذا جرى أفرادها وراء شهواتهم ، وتقوى الأمة إذا كبحوا جماح أنفسهم فى سبيل عزتها وكرامتها . وقد امتازت الحضارة العربية ، التى ورثنا مجدها فيما هو مدون من حكم وأمثال وشعر وقرآن ، بهذا النظر العقلى فى طبيعة الإنسان وسلوكه وأخلاقه ، وتنظيم قوى الفرد وعلاقة الناس بعضهم ببعضهم الآخر تنظيما يحقق الخير والعدل والأمن والنظام ، ويكفل فى الوقت نفسه الحرية والتسامح والمساواة . وهذه المعانى هى التى كان للعرب الفضل الأعظم فى دفع حضارتهم والحضارة العالمية إلى الأمام .

واليوم ، وقد استردت القومية العربية روحها ، ورجعت إلى أصولها وأحست إحساساً قوياً بذاتها ، وتبينت المثل العليا التى تهديها ، مثل الحق والخير والسلام والعمل الصالح ، والتقدم بالعمران ، والمساهمة فى إنقاذ العالم من الهلاك ، واعتمدت على أساس بنيان المجتمع ، وعلى التقوى التى هى رأس الفضائل ، وركنت إلى العقل والنظر والتفكير وطلب الحكمة ، فلا غرابة ان تستعيد مجدها وقد عرفت هذه الأصول .

خاتمة

ينقسم الباحثون فى القومية العربية فرقا ثلاثة : فريق ، وهم بعض الغربيين ، يذهب إلى أنها شعار من الشعارات الرنانة ليس له حقيقة ، وإنما هو من قبيل الألفاظ الخطابية التى تؤثر فى النفوس وتستهوى القلوب . ولكن واقع الأحداث ، وهو أصدق معيار على وجود الحقيقة ، أثبت كيانها بما لا سبيل إلى الشك فيه . ونذكر من هذه الأحداث الكبرى مساندة الشعوب العربية لمصر عقب العدوان الثلاثى . واليوم لا توجد دولة فى العالم لم تعد تؤمن بوجود القومية العربية .

والفريق الثانى يقول : إن القومية العربية « واقع » ؛ لأن الواقع ما له وجود ملموس ، وانكروا أن تكون فلسفة ، وعارضوا من يقول بذلك .

والفريق الثالث يذهب إلى أن القومية العربية « فلسفة » ، باعتبار أن الفلسفة ليست شيئاً آخر إلا معرفة أصول الأشياء وغاياتها ، والبحث فى قيمها المختلفة التى على أساسها يتوقف سلوك الإنسان . وللقومية العربية فلسفة هى أصولها التى تقوم عليها ،

والقيم المختلفة التى بها يهتدى ابناء العروبة فى حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية ، والتى تجعل منهم أمة واحدة ، ومجتمعا واحداً .

والمذهب الذى يصور هذه الفلسفة هو « الواقعية العقلية » ، ذلك أن المذهب العقلى وحده ليس كافيا فى تفسير الحياة والأخذ بيد الإنسان. وليس الإنسان عقلا فقط ، ولكنه مزيج من العقل والعواطف والإرادة ، وكثيرا ما تتعارض عواطفه ورغباته مع الفكر الخالص والأصول العقلية البحتة . وقد سار اليونانيون القدماء على هدى المذهب العقلى فقط فلم يفسحوا المجال للأديان السماوية ، وكان الهند والفرس من المغالين فى النزعات الصوفية التى تستهدف معرفة الحقيقة بالقلب والوجدان . أما العرب فكانوا أمة وسطا ، كما وصفهم القرآن الكريم ، فوفقوا بين الأصول العقلية وبين النزعات العاطفية ، وجمعوا فى داخل الإنسان بين أفكاره وعواطفه وميوله الدينية ، وطريقة سلوكه فى الحياة . ولهذا السبب لم يجد الفرس ولا الترك ولا الهنود ولا اليونانيون وغيرهم مشقة فى الاندماج فى سلك العروبة كما فعل ابن المقفع والبيرونى وابن سينا وسائر الذين اتخذوا العروبة مذهبا ؛ وعلة ذلك أن مذهب العروبة أو فلسفتها يرضى تطلع الإنسان إلى

الكمال والرقى ، والحياة الدنيوية والأخروية على حد سواء ، ويحقق تلك القيم التى يسعى البشر إلى بلوغها ويشقون فى سبيل الذود عنها ، ولا يزالون ، كالعدل والحرية والإخاء والمساواة والسلام . وهذه هى المثل العليا التى تجعل القومية العربية متميزة عن غيرها من القوميات ، والأمة الوسط بين الشرق والغرب ، سواء فى الزمن القديم أو الحديث .

وليس أبلغ فى هذا المقام من كلمة قالها البيرونى فى إيثار القومية العربية ، فقد كتب أبو الريحان البيرونى [٣٦٢ – ٤٤٠ هجرية] يقول فى مقدمة كتاب الصيدلة : « ديننا والدولة عربيان توأمان ، ترفرف على أحدهما القوة الإلهية ، وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشدت طوائف من التوابع ، خاصة منهم الجيل والديلم ، فى إلباس الدولة جلابيب العجمة ، فلم تنفق لهم فى المراد سوق . . . . . وإلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم ، وسرت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة ؛ وإن كانت كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها واستعملتها فى مآربها . وأقيس هذا بنفسى ، وهى مطبوعة على لغة ، لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب والزرافة فى المكراب ؛ ثم منتقلة إلى العربية والفارسية . فأنا فى كل واحدة دخيل

عليها ومتكلف . وللهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية ... » .

والقومية العربية كيان حى ، وهى ككل كائن حى يزدهر وينمو ويتطور . وهى فكرة « متطورة » وليست ثابتة . حقا لها أصول ثابتة كاللغة والمثل العليا التى يعبر الدين عنها ، والتى فصلنا القول فيها من قبل ، ولكن تفاعلها مع غيرها من القوميات ، وصراعها على مر الزمان ، يجعلها تتخذ أشكالا جديدة فى كل زمن نتيجة النزول فى معارك الأحداث ؛ ولذلك كان لها فى الماضى قصة ، وفى الحاضر قصة أخرى . قامت محاولات كثيرة فى الزمن القديم للقضاء على العروبة ، ولكن بقاءها حتى اليوم صامدة ، وخروجها ظافرة ، واستمرارها حية ، دليل من الزمن نفسه على صدق العروبة وأصالتها .

ومن العوامل الجديدة المؤثرة فى القومية العربية نهضة اللغة ، والإقبال على ترجمة العلوم الحديثة وابتداع مصطلحات جديدة تعبر عن المفاهيم الجديدة . وهى حركة شبيهة بحركة النقل زمان العباسيين . وعندما تستكمل حركة الترجمة سيتبعها دون نزاع نهضة علمية فى العالم العربى ترفع من شأن القومية العربية وتسمو بحضارتها .

ومما يزيد فى اندفاع القومية العربية إلى الأمام أن الذى يحمل لواءها فى الوقت الحاضر ، الشعوب كلها . وإذا تحرك الشعب كانت حركته أشبه بالتيار الجارف ، لايستطيع أحد أن يقف فى سبيله .

لقد انطلقت القومية العربية من عقالها ، وانبعثت من مرقدها ، واهتدت فى حركتها بمثل عليا سامية مستمدة من تاريخها وروحها ، هى مثل الخير والعدل والمساواة والسلام . وجدير بمن يهتدى بمثل هذه القيم الروحية أن تتوطد أركانه ، وأن يستمر فى البقاء وفى النماء ، والتطور والرقى .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها الآن :

١ ـــ الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ ـــ الاشتراكية والشيوعية ... ... للأستاذ على أدهم
٣ ـــ الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى للدكتور عبدالحميد يونس
٤ ـــ قصة التطور ... ... للدكتور أنور عبد العليم
٥ ـــ طب وسحر ... ... للدكتور بول غليونجى
٦ ـــ فجر القصة ... ... للأستاذ يحيى حقى
٧ ـــ الشرق الفنان ... ... للدكتور زكى نجيب محمود
٨ ـــ رمضان ... ... للأستاذ حسن عبدالوهاب
٩ ـــ أعلام الصحابة ... ... للأستاذ محمد خالد
١٠ ـــ الشرق والإسلام ... ... للأستاذ عبدالرحمن صدقى
١١ ـــ المريخ ... ... للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى

١٢ — فن الشعر ... ... للدكتور محمد مندور
١٣ — الاقتصاد السياسى ... ... للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق
١٤ — الصحافة المصرية ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزه
١٥ — التخطيط القومى ... للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن
١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية . . ... للدكتور ثروت عكاشه
١٧ — اشتراكية بلدنا ... ... للأستاذ عبد المنعم الصاوى
١٨ — طريق الغـد ... ... للأستاذ حسن عباس زكى
١٩ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى للدكتور محمد يوسف موسى
٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف
٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر .. للأستاذ محمد صبيح
٢٢ — قصه الذرة ... ... للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه للدكتور أحمد أحمد بدوى
٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب للدكتور إمام ابراهيم احمد
٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور أحمد سويلم العمرى
٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

الثمن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها ...

واطلبه من :

١ — دار القلم .... ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

٢ — مكاتب شركة توزيع الأخبار .... فى الإقليم المصرى

٣ — وكلاء الشركة القومية .... فى جميع البلاد العربية

٤ — مكتبة المثنى .... بغداد — العراق

مطابع دار القلم بالقـــاهرة